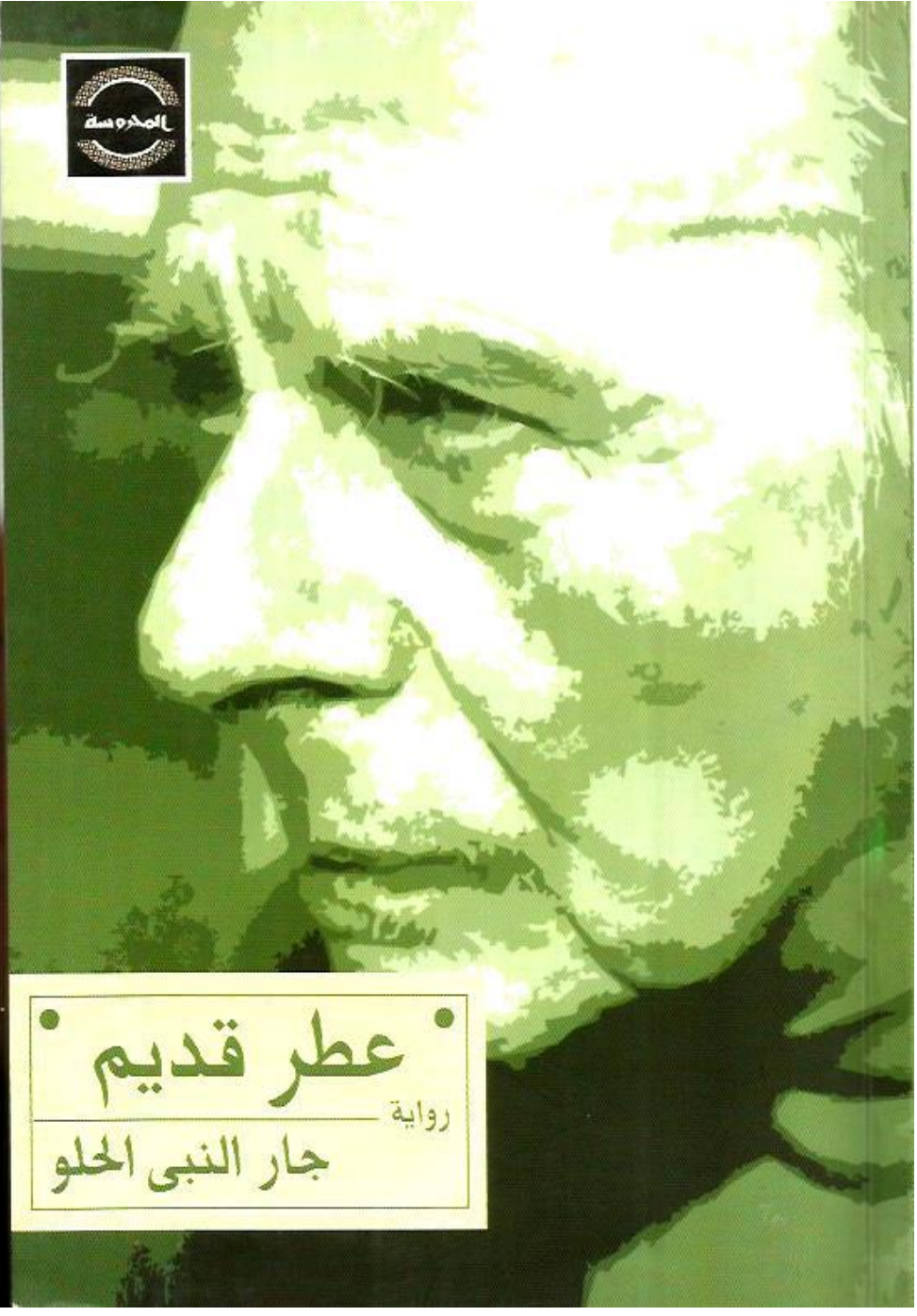

المحروسة

عطر قديم

رواية

جار النبى الحلو

رواية

عطر قديم

جار النبى الحلو

الطبعة الأولى ٢٠١٠

عنوان الكتاب: عطر قديم
اسم المؤلف : جار النبي الحلو
الناشر : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ – المقطم – القاهرة
ت، ف : ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosacenter@ gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف عمرو عامر
المحرر العام : محمود الوردانى
المستشار الإعلامى : مصطفى عبادة

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٤٧٩
الترقيم الدولى ٧-٣٦٠-٣١٣-٩٧٧-٩٧٨

جميع حقوق الطبع
محفوظة لمركز المحروسة
الطبعة الأولى ٢٠١٠

عطر قديم

٥

الرائحة القديمة

أوحشنى، سألت عنه فقالوا إنه في الحجـــرة التى فوق السطح.

كان علىّ أن أصعد إليه. ولكن بقلب مغاير. إنه يرتج الآن، لأول مرة منذ تزوجت أعبر باب بيتنا القديم، مشيت في طرقة الحديقة واختلســـت رائحة عطر، لم تطأ قدمى درجات الســـلم منـــذ تزوجت، الدرجات التى يلتمع بها الصدف. مـــا تزال رائحة الموبيليا الجديدة في أنفى، ومازلت أفتقد الألفة مع الصالون المذهب، ليس ســـواها "هدى" السلوى في ضوء خافت وشقة متواضعة تفترش صالتها سجادة رخيصة. والروح تهرب منى إلي هناك فوق السطح.

أي جرأة جعلتنى أصعد. أمسك الـــدرابزين الذي بهت لون إفريزة الأخضـــر، الإفريزالـــذى كنت أتزحلق عليه من الطـــابق الثالـــث حتـــى الأرضى، وأتسابق مع "إفراج" في قفز أكبر عدد من درجات السلم، في إحدى طموحاتى قفـــزت وسقطت علي ذقنى فانفتحت وحملنى أبي وجرى إلي المزين.

أبي الآن في حجرتى التى فوق السطح، أقام بها، و نـام مكانى، تركهم تحت. وحط مثل طائر عجوز في حجرتـى. لا يقيم وحده، معه العصافير التى عششت بين عروق الخشـب، وأرنب أبيض فرّ من السطح ولاذ بالكنبة، والسـلحفاة التـى اشتراها لي وأنا صغير وكنت أطعمها الخس والبرسيم، وأرسم علي مربعات ظهرها بالألوان، وفوق بطنها كتبت اسمى.

يوم خرجت لأتزوج، دخل هو الحجرة ليعيش حتى أيامه الأخيرة، أخذ المصحف وتـذكرة داود وتفسـير الأحلام لابـن سيرين، والسير الشعبية، ورزمة ورق أبـيض لامـع نـاعم وثلاثة أقلام حمراء من الحبر الجاف، وكل النظـارات التـى وضعها علي وجهه في عمره الفائـت، منـذ أول فـيلم رآه بنظارته الأولي إلي النظارة التى انكسرت عندما انكفـأ علـي وجهه وصار كفيفاً.

سمعت بكاء ابن عمر، وشممت رائحة شواء. "عمر الآن يجلس في المطبخ، علـي الأرض، يشـوى اللحـم باهتمـام، والشباك مفتوح علي الحارة، وبعد أن ينتهى سيجهز الطحينـة البيضاء والسلاطة، زوجته لا تتدخل، الدخان كثيف يخرج من الباب الموارب.

أنا وهدى لسنا من هواة أكل اللحم، نشتريها عندما نعلـم أن أحداً سيأكل عندنا. وأمى تحضر لي – تحت طرحتها السـوداء – الشاى والسكر وطبق المحشى الساخن والكبدة المحمرة.

غير إننى أحب رائحة الشواء، وأحب رؤية عمـر وهـو جالس يهوى بالمروحة التى صنعها من ريش الديوك الرومى. قفزت درجتين من السلم، وتجاوزت شقة أخي عمر.

بعض الدرجات وأكون علي السطح، بالضـبط بجـوار حجرتى التي... لم تعد حجرتى وإن ظل أسمها طول العمـر حجرة جابر، رغم الأزمان التى تلت عليها.

ارتج قلبى، أخاف لحظة رؤية المكان.. كنت أصعد تلك الدرجات صاخباً، فرحا، غاضباً، جذلا، محبطا، ثائراً، شفيفاً، عطوفاً، متلهفاً، هزيلاً، قوياً، مهزوما، طموحا. وصعدوا إلىّ مثل أرواح تلهو بالحياة فتستسلم لهم، فريد، وعبده، ومحمد، وعاطف، ورفاعى، وعبد العزيز وأحمد والزغبى، وتوحة، وهدى، وعلي المنصورى. سامية لم تأت، عطية !! قفز الديك طائراً فأفزعنى، وفاجأتنى ثلاثة كباش بقرون ضخمة تضرب برأسها في الباب الخشبى الصغير المكسور، حشروا القرون في الباب، جرت نعجات هنا وهناك ثم تبعتها الكباش، أمسكت الدرابزين بخوف وعلا الثغاء، استندت قليلاً، تواجهنى الآن حجرة الفرن، بابها مغلق، رائحة الخبيز القديمة مازالت تسكنها. الفرن بارد، وفوقه ألواح العجين الخشبية، وعلي الجدار العود الحديدى مركون، وفي الركن بعض القش والجلة الناشفة، وفي الأرضية الردة منثورة، وفي سقف الحجرة ربما مايزال الفأر الذي استوطنه.

علي شمالى الحجرة، اعتدلت فواجهت الباب، علي الجدار كتب طفل بعد أن رحلت اسم جابر كبيرا جداً. تقدمت بوله المحب، خبطت علي الباب خبطة ضعيفة واهنة. قال الصوت من الداخل بثقة

أدخل يا جابر.

مازال مصراً علي إثارة دهشتى. تمالكت نفسى. أسمع صوت أقدامى؟ أم رآنى طالعاً في المنام. أو شم رائحتى!

- **أدخل يا جابر.**

ضغطت بخفة علي المقبض الألومنيوم القديم، انفتح الباب وأطللت على الحجرة، شعرت بالدوار، فقال الكفيف المبصر

- **خذ نفسك.. واجلس.**

جلست بجواره علي حافة السرير. علي تلك الحافة جلست توحه بعطر الياسمين، ونمش يتراقص علي وجنتيها. كانت الدفء الأول الذي سلمنى لبرد قارص.

وضع أبي يده علي كتفى وهو يهمس.

- **كيف حالك؟**

وأخرج من جيب الصديرى ساعته ذات الغطاء والسلسلة، حطها أمام وجهى على راحة يده، وسألنى:

كم الساعة الآن؟

في هذا الركن من الكنبة جلس "عبده" يلقى شعره ومواعظه واعترافاته. هنا كانت التربيزة ذات الدرج – المكتب – ومرسم "فريد" ومهبط إلهامة ابتسمت. لم يرنى أبي، فريد يجلس إلي التربيزة ويقول اتركنى فأتركه وأذهب إلى السينما وأرجع لأسمع قصيدة جديدة، مرة واحدة رفضت أن أسمع، أخذت أحكى له الفيلم الذي رأيته "أنهم يقتلون الجياد.. أليس كذلك" ثم أخذت أبكى.

في هذا المكان الخالي كانت تقوم مكتبة صغيرة، كان "محمد" هو الذي ينظم كتبها، ويقرأها، بل ويصر أن اشترى كتاباً محدداً لأضعه فيها، كان "انوبيس" يرقد بجوار المكتبة. سألنى أبي:

كيف حال زوجتك؟

تشممت جيداً. أحمد وعاطف ومنصور كانوا هنا.. رائحتهم غادرت الحجرة، كانوا يمضون ليقلد فريد "جين كيلى تحت المطر وكنت استدفئ بأنفاسهم. كنت أقرأ لهم القصص ونشيد الإنشاد وأقرأ ايلوار وناظم حكمت وطه حسين، وأبكى أمام فريد في حالات عاطفية خائبة، ونقرأ الأوراق السرية التى كنا نظن أنها ستغير العالم.

مرق عصفور.

منذ غادرت الحجرة لم أر هذه الصور فوق الجدران، تركتها ومضيت، ضحك عبد العزيز وقال قص الجدران وخذها معك. بيكاسو، سباحة الحصان الأحمر، الولد العارى، البنت النوبية، جيفارا، فيروز، وأسماك، ومدن، وشعر لزملاء، وأمنيات، وأرقام تليفونات. لفتنى الحجرة بمفرداتها، لكن ما بال الألوان فقدت زهوها! بدت الصور صامتة باهتة لا تحمل أي معنى!

وقفتُ في منتصف الحجرة فيما ابي يدخن سيجارته علي مهل.حطت غربة علي المكان وأزاحتنى برفق حتى خرجت ونسيت أن أقول لأبي كم هو أوحشنى.

الشجيرات تلفظ خضرتها

لن تؤكلنا شجيرات القرنفل والدفلى والياسمين، سنجوع ونحن نتفرج علي زهورك.

ودعك سيجارته في قعر المطفأة.

ربتت علىّ "هدى"

لا تحزن

سينفجر الحزن صدقينى. أي جرأة تلك التى تدفع يدا لتقطف زهور عمري، أخذتنى في دفء صدرها وهي تقول سائله كطفلة.

الست زهرتك البيضاء؟

صدقينى. أنا هنا في شقتنا الضيقة المظلمة، وروحى هناك أجرى أنا وأختى إفراج إلي النهر ومعنا الغلق الجلد، أظفارنا الصغيرة تسرح في بطن التراب، أرنو لوجه إفراج العرقان فأتحمس، نخرج الطين، وأسمع خريراً هادئاً للنهر أقول لإفراج النهر يهمس لي هكذا ش ش ش ش جابر.. ش ش ش ش جابر. وكانت تصدقنى فهى تصدق كل الحواديت عن العفاريت والأشباح، بل ويضيف خيالها للحكايات حكايات أكثر رعباً وأنا بجوارها أشد اللحاف حتى أذنى وأختبئ، كنت أقول لها: حين أغمض عينى أو أشد اللحاف لا يرانى العفريت. كانت تضحك.

أنت خائف؟

لا..

لا.. إحكى يا إفراج.

نملأ الغلق بالطين، ونملأ الإصص ونغرز الزرع بأيدينا. عمر ينظر لي ويبتسم وأبي يشخط فىّ أن أمسك النبتة بحنو وأوسع لها في الطين وأن أسكب الماء باحتراس وما أن يراها كما يشاء حتى يبتسم. ويسهر الليالي يُقسّم الأرض لأحواض، ويشقى بسبب جلب الماء، فمرة من النهر ومرة من البئر حتى دخلت المياه في مواسير، وظللت عمراً أطل من الشباك أرقب شجرة العنب التى تتسلق لأعلي. أرمق الرمان في فرح ويخايلنى علي صدور البنات. تجلس أمى تحت "البنسيانا" تفرش القمح، وتنقى الأرز. وتنعس.

سرقوا الجنينة ياهدى

تربت علىّ بيدها الدقيقة الرقيقة فاستسلم للنوم والظلمة والرطوبة. ولأول مرة سعلت هدى. غطتنى بالبطانية وانزلقت بجوارى.

ها هو عمر يضع الكراسى الجريد والتربيزة الجريد لنجلس ونشرب الشاى ونقرأ جريدة "الجمهورية.. جريدة الشعب". بعد ذلك كنا نضع التليفزيون بالجنينة فى ليالى الصيف نتفرج على سناء جميل وشفيق نور الدين وأم كلثوم وعبد الناصر والزمالك. كانت مهمتى تنظيف الجنينة لا ورقة شجر ناشفة ولا طوبة ولا عقب سيجارة من سجائر أخى الكبير.

أمى طبطبت علىّ: لا تقهر نفسك. اقول لا شيىء يا أمى. أتركها مع هدى وأدخل حجرة النوم لأجهش بالبكاء.. أربت على ظهرها. قبل أن تمشى تترك لى طبق المحشى الساخن.

زعق عمر:

على جثتى... لن يأخذوا الجنينة

وكان يلهث. يجلس على الكرسى فيما زوجته تمسح عرقه وتبكى وتقدم له الماء بالسكر. وأنا أهدئ من روعه متمسكاً بأننا لم نتحاور بعد. هبد بيده زجاج مكتبه صارخاً:

أى حوار !

هبد بقوة الزجاج فقسم الزجاج شق كثعبان قد مرق فى لمح البصر.

هكذا يا أمى تتغير الأحوال وتتبدل الوجوه والبيوت.

نعم يا جابر نعم.

ويا أبى..

لا تكلمنى يا ولدى.. فأنا الكفيف رأيت ما لم تروه. الخراب قادم، إذا لم تسلموا الجنينة لأخيك لقتل الكبير الصغير إنه يريد أن يأكل. ماذا ستقدم له الجنينة..

صمت طويلاً ثم قال:

إننا نضحى ببعض الأشياء كى نعيش.

هدى أمام البوتاجاز المسطح تقلى لنا البيض لنتغدى.

وأنا أعبر طرقة الجنينة توقفت هنيهة لتصافح عينى أصحابى القدامى، فطارت لى زهور القرنفل الحمراء والبيضاء، دخلت زهرة حمراء فى عينى صارت الدنيا بلون الدم، موجعة، حطت زهرة قرنفل بيضاء فى قلبى. وهجم علىّ النعناع والريحان والعتر واللويزا. أردت أن أهرب من عطر قديم لكن الجهنمية مدت أذرعها وشدتنى، كانت مزهرة وعفية، لفت على ودفعتنى فسقطت على ظهرى، تساقطت الزهور كثيفة باشواك لا أعدها، لا تكتمى أنفاسى. هل لتراكم العطر قوة القتل.

وجاء نباح. إنه يبحث عنى بأنفه، يريد أن يخمشنى، رجلاه الأماميتان تبحثان عنى. إنه الآن يقترب من وجهى،

أزاح الجهنمية فالتقيت بعينيه الشرستين، فصرخت، فضحك أخى الأكبر: لا تخف.. الكلاب لا تعض أصحابها. لكن النباح تقافز عالياً وطارد كل العطر. لابد أن الكلاب لا تعض أصحابها ولكن ربما تأكلهم.

انتفضت لا صارخاً ولا باكياً ولا مرعوباً بل ساهماً فأعطتنى حضنها ودفئها وشايها وعنبها وأحلامها وقالت إننا أنا وهى نستطيع أن نأكل اللحم مرة كل اسبوع. وقالت أمى: وعندى اللحم مرتين. ولما تمددنا فى الظلمة تحت الغطاء كان الراديو بجوارنا ومن محطة عربية يهاجم "السادات" بينما هى تهمس لى:

أرأيت.. يمكننا أن نعيش كثيراً، ونصنع حجرة لطفلتنا القادمة بها سرير وبطانية، ونوفر ثمن بلوفر صوف فى الشتاء وفستان قصير خفيف للصيف ونعلق لها صورة بطة لها شكل العصفورة.

وحطت الرطوبة على صدرها فسعلت وسعلت.

شربت كوب اليانسون الساخن الذى جهزته بسرعة فى الضوء الخافت وأنا ألعن الكهرباء والأسلاك والحوارى. ثم أردفت:

أنظر.. هذا كيس به جزر.. هذا كيس به برتقال وهذا كيس به يوسفى. ألا نستطيع بكل هذا أن نأكل ونفرح.

ونمت على رائحة يوسفى قديم.

أخذنى أخى الأكبر تحت ذراعه، وكان ودوداً وطيباً. فى حديثه صدق ورجاء. طبطب علىّ وهو يقول:

– ويا أخى.. يا ابن أمى وأبى.. ماذا استطيع أن أفعل بالجنينة.. هلى أزرعها لحمة وملوخية !!

– وماذا أفعل بأولادى ؟! هل أكبش لهم من تراب الجنينة ليأكلوا؟

دمعت عيناه. وهالنى ذلك. فأخذته تحت ذراعى، وطبطبت عليه، وقلت: لا تزعل.. إننا نضحى باشياء كثيرة كى نعيش.

فرد لى يديه قائلاً:

وأنا لا أريد غير أن أعيش.

نهضت فزعاً من نومى فقد أعدت شريط ما حدث، فبعد أن قال أن أعيش أدار وجهه يميناً وابتسم ابتسامة غريبة. القطة التى فى الصورة سخرت منى وغمزت بعينها، هدى أقسمت أن القطة غمزت بعينها ! ولما مددت يدى لأسلم عليه، عاد قوياً.

مشيت فى الصالة ودخلت حجرة الصالون، وجلست فى برودته. قبضت على "أنوبيس" بيدين باردتين. لما دمعت عيناه همس:

دكان.. فقط دكان..

من قال أنى أريد الجنينة !

فقط دكان.

مسحت أمى أنفها فى ذيل طرحتها السوداء وهى تهمس لى:

يأخذ الدكان ويترك لكم حياتكم.

وأنا أخدع نفسى متسائلاً:

وهل يعيش الإنسان بالمكان.

وعمررفض أن يتكلم. أضرب عن الحوار. يكور يده، قبضته تلوح مدافعة عن الجنينة.

لأول مرة أرى زجاج مكتب عمر متربا.

وما أن تصل رسالته ويفضها أبى يقول بفرح طفل سيحضر من الكلية، حتى أنهض أنا الصغير وأرتب لعمر حجرته، أرتبها كما يحبها هو، وأرتب المكتبة وأعيد كل الكتب التى أخذتها لأقرأها، أعيدها حتى لو لم أقرأها.. وألمع زجاج المكتب، أجعله مثل المرايا.، ألمح صورته الكبيرة المعلقة: بين زملائه على شط الأسكندرية، وأمام مبنى الكلية الداكن، ومع زملائه فى الأقصر. وأظل واقفاً بجوار شجرة البنسيانا حتى أراه قادماً مع أبى.

كان جالساً على كرسى أمام الجنينة واضعاً ساقاً فوق ساق، سألته:

أين أبى؟

أشار برأسه لأعلى دون كلمة.

مرة أخرى أصعد درجات السلم إلى السطح حيث حجرتى. لا.. لم تعد الآن حجرتى. مددت يدا باردة متوترة إلى مقبض الباب. هل يقفز فى وجهى الحصان الأحمر، أم تشيح فتاة "رينوار بوجهها عنى.

وانفتح الباب كان جالساً على السرير، رأسه باتجاه السقف وأذناه تتنصتان باهتمام، فرح وبانت أسنانه البيضاء، ضمنى فشممت رائحته القديمة. جلست بجواره. لم أجرؤ على مواجهة الصور التى على الحائط، أشعر أنها تعاتبنى، أنها تغيب عنى وترحل وتجر الأشعار المكتوبة بجوارها وترحل. لم يودعنى بحب سوىً لوركا الذى تمتم:

"إذ أنا مت دع شرفتى مفتوحة"

النوافذ مفتوحة للهواء والشمس والعصافير، وفجأة أخذ يحكى لى حواديت قديمة، ، حكايات كلها تترنم بالتضحية

والاستشهاد ثم.. أخرج العقد. مكتوباً وممهوراً بتوقيعه، قال بصوت ليس صوته:

عقد الدكان

مد يده مثل كفيف ولمس كتفى بيد مرتعشة

لو لم أفعل، سيموت من الجوع

وقال قبل أن يضع رأسه على الوسادة ليتركنى وينام:

الدنيا تغيرت

هكذا رحت الاحظ الدكاكين، تلك التى طلعت فجأة تحت البيوت وفى قلبها ومن حجراتها. هذه كانت حجرة نوم صارت دكاناً للفسيخ، إذ استثمرت فاطمة مهارتها وأخذت زوجها وابنتها وناموا فى الصالة وصارت الحجرة دكاناً ذا رائحة. وهذه حجرة "رشاد" الموظف بالبلدية صارت دكاناً لتجليد الكتب ونام هو فى حجرة أبيه فوق كنبة اسطنبولى. أما الحاج حسن فقد استغنى عن الطابق الأول فى بيته ليصبح ثلاثة دكاكين: دكان عصير قصب ودكان بقالة ودكان تأجير دراجات تزينها الأوراق الملونة. وفى العمارات العالية تحولت الحجرات إلى "سوبر ماركت" تعرض فى واجهتها الزجاجية لعب الأطفال والشكولاته، وكافة مساحيق الوجه، وأكياس البطاطس، وحلوى تصبغ الشفاه. كان هنا حجرات ذات نوافذ من زجاج وخشب لها مفاتيح وأسرار. البنات كن يقفن هنا فى الشرفات والشوراع ترنو إليهن بفرح، والصبيان يطلون من النوافذ ويجلسون يقرأون الكتب وفى الشرفات يسمعون عبد الحليم حافظ ويلعبون الطاولة ويتناقشون فى الضباب والسلام والزيف والأهلى والزمالك.

وبدأت ألاحظ الأبواب، طارت الأبواب الخشبية التى تحمل روح صانعها ودقته وفنه، طارت الزخارف وحطت فى

النسيان، والنحت انطمس فى الذاكرة، وعرق النجار نشف على أعتاب الدكاكين، صار للباب اسماً آخر: البوابة. بوابة حديد كبيرة مصمتة، لوح صاج ضخم مغلق مقفل ولكل ساكن مفتاح وترباس ومقبض. صارت البيوت مكاناً لإتمام الصفقات وبيع الملابس المستوردة وحجرات لماكينات التريكو وصنع الحلوى وتفسيخ السمك ومكاناً لتوقيع عقود البيع والشراء لكل الأراضى الزراعية لتصير جنة السلام المرتقب. وفرحت أن أخى لم يأخذ كل الجنينة، بل كما قال برجاء:

دكان

ضربت الفأس الجذور، وداست الأقدام الخضرة، تراكمت الشجيرات فوق بعضها. أطاحوا بنصف سور الجنينة، ماتت الجرونيا واللويزا والنعناع والقرنفل، بضربة فأس صار للأرض شكلاً كئيباً، وشجيرات صغيرة تلفظ خضرتها ويحط الإصفرار على العيدان والزهور والجذور وروحى، الأخ الكبير سعيد بتحقيق حلمه، فيما أغلق أبى على نفسه باب الحجرة وحبس بعض العصافير وذهبت أمى عند أختى عليه، وعرفنا فيما بعد أنها ظلت تبكى حتى قبلت أختى وأبناؤها وزوجها رأسها حتى تكف عن البكاء الذى رفع ضغطها وجعل الدم ينبثق من أنفها فشربت الكركديه ونامت حتى المساء. وعمر أغلق شقته وجلس الأبناء فى حجرتهم لا يذاكرون ولا يتفرجون على التليفزيون

جلست فوق كوم التراب العالي، شدنى مصطفى ابن أبو سعده من يدى لم أطاوعه، تشبثت بكوم التراب. مزقنى أيها الفأس وأضرب فىّ، فأنا العاجز لا ينفع معى الإنقاذ أو الهروب، سأتلقى كل الضربات وأنا رابض فوق كوم التراب.

الآن أستطيع أن أصرف علي أولادى.

وقال للبناء ابن يا بناء، وللسباك مد المواسير، وللكهربائى ازرع السلوك، وللنجار أصنع الأرفف والشباك والباب، وللحداد أصنع القفل والمفتاح، وقال للدجاج أدخل يادجاج حتى تذبح وترمى في الماكينة فتخرج نظيفا بلا ريش، والريش يملأ الحوارى.

ورأيت بعينى كيف أن الرخاء عم الحارات، فعلى رأس كل حارة تخشيبة بها الدجاج الأبيض وماكينة للتنظيف، وأمام كل حارة أكوام الريش ذات الرائحة البغيضة، وهو ابن الجزار أتى باللحوم المستوردة من بلاد لا نعرفها، وسمعت كثيراً السلام، السلام مع من يكرهك، السلام مع من قتل ابنك، السلام مع ما لا تطيقه، السلام مع الفظاظة والكناسة والمجارى والروائح الفذة.

طفحت مياه المجارى فوقفت مع هدى وقفة رجل واحد بالحارة لنمنع المجارى من دخول شقتنا، ومياه الأمطار تحولت إلي عطن أعبرها مع الكلاب بصعوبة فأعطانى أبي عصاه ذات اليد لتعيننى علي العبور، فاستعملتها في الغوص في الطين ومطاردة الكلاب ومهاجمة الفأرالمختبئ في البوتوجاز وفي الصعود إلي السطح كل ليلة لأتأكد من خلوه من المجرمين، وفي وضعها خلف الشراعة كحارس ليلي، وأهش بها القطط والعيال الذين يلعبون ويتصايحون تحت شباكى. حتى جاءت أختى الصغيرة وطلبت العصا لأنها ليست ملكى وحدى ولا يمكن أن ارث أبي وهو حى. فأعطيتها العصا وصرت وحيداً بدونها.

عذبنى الضوء الخافت الذي لا أرى فيه الحروف وعشمنا رئيس الحى ورئيس البلدية ورئيس خطوط الكهربا ورئيس الكابلات ورئيس المصابيح أنهم ينتظرون وصول الخط العالي من السد العالي فتزيد كهرباء حارتنا وننعم بسلام الكهرباء.

وعذبني التليفزيون الملون – عند أخي – الذي يقهرني كل يوم بمسخ لا أستطيع معه سلاما، وعرف كل الشعب شكل العلم الإسرائيلي، بل صار مألوفا، واكتشفنا أنهم ليسوا "خنفا" كما علمونا زمان، وأنهم بشر في غاية الرقة فقط يقتلون الفلسطيني ويقيمون له المذابح كلما استلزم الأمر، ثم إني عرفت فلسطيني ساذج لا يملك سلاحا أو قنبلة ويقيم في شقة بالجيزة، شقة عبارة عن حجرة وصالة ومئات الكتب، دعاني يوما مع فريد لزيارته فرحنا ببعضنا جدا، وفرحت بلهجته، قلت له علمني كل ما هو فلسطيني، فقال سأصنع لك غداءا فلسطينيا، وانتظرنا الساعات، قلب فيها فريد كل الكتب وقرأ كل الأشعار ورأي عشرات الخرائط، ثم جاء الفلسطيني بطبق من البطاطس المسلوقة والمدعوكة بالبيض. ظللت أضحك وأضحك واحتضنه ــ فهذه أكله أمي المفضلة حين لا تجد ما تطبخه لنا. واختفى الفلسطيني الساذج، ولما سألني فريد لماذا أصفه بالساذج قلت لأنه مثلنا يحب الحكايات والبطاطس والكتب.

البوابة الجديدة شديدة البرودة، مصمتة، لا نملك لها أي مفاتيح، وأحزن علي بضعة أمتار من جنينة ستتحول إلي دكانّ

أخي ابن هذه الأيام حقا. وأنا !! أصرخ في وجهي ياهدى أن أكف عن أحلامي، مت بغيظك ياعمر فحلمنا الجميل لم يصمد أمام ضربة فأس.

صرت عجوزا أتكأ علي كتف هدى، بعد أن سحبوا مني العصا، غيرت طريقي فما عدت أريد رؤية بيت أبي ولا دكان أخي. الذي يجلس بطيبة أمام الدكان ذي اللافتة الكبيرة، واضعاً ساقا فوق ساق، والصبيان في الداخل يبيعون الدجاج والبيض واللحم المستورد. وأبي يقيم في حجرتي يتسمع صوت العصافير ويتسقط أخبار أولاده الذين يهم كل منهم للوقوف بحزم ضد أخيه.

سفر وردة سمراء

كنت أصعد درجات السلالم بصعوبة ؛ فثقل يحط في صدرى وكان يتناهى إلي سمعى صوت واهن لسيدة غامضة يردد كأنه النحيب:

ياورد في الإبريق

ياقصر عالي ماكملوش تزويق

حزنى عليك ياللي انطردت بعيد"

أخذت شهيقاً عميقاً محاولاً استرداد أنفاساً كانت تملأ هذه الحجرة التى فوق السطح.. تمتمت متسائلاً في قلق:

- خير يا أبي !! طلبتنى.. و..

قال الذى لا يرانى وهو يؤكد بيديه:

- زينب.. زينب النوبية.. لا نجدها كأن الأرض ابتلعتها.. خذ أمك وابحث عنها.

زينب النوبية.. التمعت أسنانها البيضاء في ذاكرتى، وابتسم وجهها المدور شديد السمرة، كنت اتخفى منها خلف الكنبة وهي تبحث عنى، أهرب من عيونها البيضاء، أتكور كاتما ضحكا وخوفا ثم فجاة تنقض علىّ بيديها، وتحملنى لأعلى هاتفة وضاحكة :

- أمسكت بك يا عكروت.

ثم تشدنى إلي حضن صدرها الطرى الذي كنت أشعر به يفعص تحت عظام صدرى، تلعب لي حواجبها، وتحطنى مثل قالب طوب علي الكنبة، تجلس أمامى علي الأرض وهى تقول كمعلمه:

- هه.. سمع القرآن الذي أخذته في المدرسة.

كنت أتعثر وأردد سور الإخلاص والكوثر والفاتحة، وأطلب منها السماح لأننى لم أحفظ غيرها، بعد ذلك اكتشفت أنها لا تحفظ سواها مثلى، وفي كل مرة أردد السور الثلاث وتكون هي سعيدة فيما تعبث أصابعها بجعران أزرق صغير يتدلى من دوبارة تتدلى من رقبتها، وتنهض بخفة لتنقى الأرز أو القمح أو الفول مع أمى، وعندما استغربت ذات مرة لشدة سمرتها قال أبي إنها صعيدية من الصعيد. ومن كلام أبى عرفت الصعيد البعيد عبارة عن حر شديد وبيوت مزخرفة وقصب وبنادق، وأن الصعيد ليس مصر التى هى المحلة الكبيرة وطنطا.

ذات مرة وكانت غائصة في قش الأرز المكوم فوق السطح ذات المكان الذي بنيت فيه بعد ذلك حجرتى، اقتربتُ منها وكانت سابحة في اغفائة، هززتها، وسألتها هل الصعيد وراء الشمس ؟! ضحكت وقالت: لا أعرف ياجابر.. جئت مع أبي صغيرة.. وسكنا خلف داركم وتربيت بجوار شجرتكم وبئر داركم، ومات أبي.. وماتت أمى ودفنها "عمى السيد" في مقابركم.. وبكت عليهما أمك جميلة.. وتركونى وحدى.. لا أعرف من الصعيد غير أنى سمراء.. و.. ولكنى أعرف اسم بلدى هناك.. كان أبي يحفظنى الاسم كل يوم، كان اسم بلدى "قنه".

تمتم أبي بدهشة:

- كانت تريد الرجوع لبلدها !!

سكت قليلاً ثم أردف:

- المجنونة.

ثم كأنه يشرح لي:

- بلدتها النوبية غرقت في تعلية خزان أسوان سنة ثلاثة وثلاثين.

النوبة ! يالها من أرض ذهبية، كان لها ملوكها وحكاياها العجيبة مع النهر وخزان أسوان والسد العالي والفيضان والتهجير والهجرة والتمسك بالأرض - أحيانا - حتى الغرق.

- أعرف يا أبى أن زينب لا تعرف بلدتها.

أكد أبي وهو يرمى عقب سيجارته في بقايا الشاى بكوب زجاجى مذهب الحواف:

- لكنها كانت تعيش معنا بفخر أنها نوبية.

قلت لأبي متبسما:

- أحببناها أيضا لأنها نوبية.. كانت مثل فاكهة نادرة.

كان من المدهش أن تعيش في بيتنا فتاة نحيلة سمراء طويلة ووحيدة !!

تلبس في الشتاء جلباباً ثقيلاً لونه أزرق وفي الصيف تلبس جلباباً خفيفاً لونه أبيض، وشعرها أكرت، عندما كبرتُ صار شعرها مثل سلك الألمونيوم. أيام القمح تشتغل في الغيطان وتأخذ حصتها قمحا، كذا في أيام الأرز والذرة. وفي أيام البرسيم كانت تربى عنزة صغيرة تأكلها البرسيم، وتلبد بجوار أبي وهو يقول: في مثل هذا الوقت من السنة يزرع البرسيم ويبرد آخر الليل ويدرك الفستق بلاد الشام وتبذر زريعة البصل، وتسمع عن شق البحر لموسى ومولد محمد الباقر وزراعة البطاطس الشتوية، وتسأل وقد بانت أسنانها البيضاء كلها: ومتى نأكل اللحم السمين ياعم السيد؟

وتبيع زينب العنزة بعد حصاد البرسيم، وتأخذني معها إلي النهر، ترفع جلبابها إلي وسطها وتحزمها بحبل رفيع، ثم تشد طرحتها عن رأسها وتنزل للنهر، وتغوص بالطرحة تحت الماء وتقب حاملة لأعلي طرحتها وبها بعض الأسماك، ترمي بها إلي الشاطئ باتجاهي وأجري خلف الأسماك واجمعها، أسماك صغيرة ومتوسطة تبرق مثل فضة جديدة، أضعها في مصفاة نحاسية تمتلكها زينب ومصفاتها دائماً لامعة نظيفة كأنها أتت حالاً من عند مبيض النحاس. وخلف باب حديقتنا فرن من صاج صنعه أبي بشاكوش ثقيل ومسامير برشام في أسبوع، ومع زينب أجلس أمام الفرن الصاج وهي تشوى السمك الذى صادته وتضعه في المصفاة النحاسية وتجرجرنى من يدى لدارها وفي دارها التى هى مندرة وحيدة مظلمة نجلس علي المرتبة المفرودة علي الحصيرة فوق الأرض ونأكل السمك ولا تكف عن الشخط وفي وجهى حتى أنهى علي السمك.

ذات مرة وأنا أمسك بين يدى كوب شاى ساخن حلت لغزاً كان يشغلنى ولا أجرؤ علي سؤال أحد عندما نهضت وخلعت جلبابها ثم توارت بجوار الحصيرة الملفوفة والمركونة بجوار الدولاب الصغير ذى الضلفتين، وخلعت قميصها اللميع وكان الرد علي سؤالى نعم جسدها كله شديد السمرة مثل وجهها، لحظتها جريت لأراها من الأمام ورأيتها، بالتحديد رأيت ثديين مشدودين صغيرين، ضحكت يومها حتى انتابها سعال وهى تضحك وتقول: ياجحش.. تعال هنا. وامسكتنى من أذنى وظلت تشدها وحين انفلتُ منها جرت خلفى وامسكتنى وعضتنى في مؤخرتى، وظللت أضحك حتى أدمعت عيناى.

– أين الزفت ؟

انتبهت لأبي الذي يعبث بيده بحثاً عن علبه السجائر التى وقعت أرضاً، أشعلت سيجارته، قال كالهمس.

- اسمع ياجابر.. أمك بحثت عن زينب في كل مكان والست اعتماد داخت في البحث.. اسمع..

وألقى كلمته الأخيرة بعد جهد:

- زينب سافرت للنوبة.. كلنا يحن للدفن في مكانه الذي ولد فيه..

الدهشة لجمت ضحكتى. النوبة !! أي نوية !! هى لا تعرف لها أرض، جاءت بعد تعلية خزان أسوان وقبل بناء السد العالي وقبل بناء النوبة الجديدة.

تمتمت ليسمع أبي جيداً.

- مستحيل.

"ياوابور الساعة اتناشر يامجبل ع الصعيد"

كنا حولها نجلس في ليالي الصيف بجوار شجرة البنسيانا في حديقتنا الصغيرة، أطفال، كنت اكبرهم سناً، سألتها عن اسمها الغريب: زينب النوبية!

بانت أسنانها تعلن ابتهاجاً وأفهمتنا إنه نسبة إلي النوبة مثل فاروق المحلاوى، أذهلتنى المعلومة وضحكت عالياً ووقعت علي ظهرى من شدة الضحك فقرصتنى في فخذى..

في كل مرة بجوار شجرة البنسيانا تحكى لنا عن النوبة وملك النوبة كان ياما كان يا سعد يا إكرام ما يطيب الحديث إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام.

نردد بحماس بالغ:

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

كان السلطان يحكم مصر.. والسلطان بالطبع ظالم.. وناس مصر تكره سلطان مصر، وقامت عليه قومه وظلت تجرى وراءه حتى ترك البلاد.. وعندما وصل لديار النوبة.. ديارنا.. طلب أن يقابل ملك النوبة.. وملك النوبة له وجه مليح اسمر مثل وجهى.. وقلب أبيض مثل قلوبكم.. وقابل السلطان.. وطلب السلطان أن يحميه ملك النوبة.. ملك النوبة زعق وقال لا أحمى من يطرده شعبه.. وطرده.. هذا هو ملك النوبة.. وللنوبة بيوت شكلها لا تعرفونه، ولزروعها أسماء غير الأسماء ولبناتها جمال غير الجمال.

وتتساقط زهور البنسيانا الحمراء في حجر زينب التى تغفو وهي تردد لكن ملك النوبة كان أبيض القلب.... وتنام.

ذات مرة نامت، وتسحب الأولاد ؛ فغطيتها بملاءة أمى. وفي الفجر داس أبى أرض الحديقة وما أن رأى زينب حتى فزع.

– نعم ياجابر.. يومها فزعت.. هل تعرف لماذا؟

ظننتها الجنى وقد نزل من فوق شجرة النبق..

بعد الفزع حلت الطمأنينة.. اقتربت ببطء.

وسحبت الغطاء فإذا بزينب تردد أبيض القلب.. أبيض.

أعدتُ دورة البحث التى قامت بها أمى، دور عماتى وخالاتى وأعمامى والمعارف وأهل الوراقة عبثاً. إلي أين تستطيع هي العجوز أن تمشى؟

ما أقصى مكان تستطيع الوصول إليه؟ أطراف الغيطان، تحت شجرة توت، في الخلاء المملوء بزبالة المدينة، خلف جدران المصانع، في حارة سد، نائمة علي رخام ساعة الشركة، في الاستاد، في ترعة تتوغل فى الغيط، في عشة مهجورة، فوق أسطح الجيران، في يد شحاذة محترفة، تحت

الصهاريج، في مصبغة، في وابور الطحين، في سوق البهائم، في فضاء، في فرن، في حمام عمومى، تحت دكة، داخل مسجد، فى برج حمام أو زريبة أو مضرب أرز أو أمينة طوب، في مدرسة، في بيت مهدوم، سوق السمك، سوق الكرشة، سوق اللبن، في المستعمرة، في المقابر، تحت السرير!! تحت السرير!!

جريت كالملسوع إلي باب مندرتها دفعته فانفتح، انبطحت بقلق ورعب وحماس، بصصت تحت السرير، ظلمة، تحسست بيدى، فردة شبشب، شاكوش مكسورة يده، نصف رطل، مشط بلا أسنان، انقشعت الظلمة زينب النوبية ليست تحت السرير.

لعلها أخذت بقجة هدومها ومشت في طريقها للنوبة كما قال أبي.. تمشى ؟! لا.. بل تسافر. شددت باب المندرة خلفى.

في الشارع جرى خلفى "شبارة" يسأل باستغراب:

- ماذا بك يا أستاذ؟

نفر قليل في المحطة، الأرائك الخشبية الخضراء المتناثرة علي الرصيف خالية. مضت كل القطارات، بحثت في دورات المياه، في النفق ذى الدرجات من رصيف لرصيف، اقترب واحد من موظفى المحطة يرتدى زيه الأخضر والكاب سألنى:

- هل تبحث عن أحد؟

قلت بلهفة:

- نعم.. زينب.. زينب النوبية.

هرش رأسه، أزاح الكاب للخلف، سال:

- ما أوصافها؟

- عجوز.. سمراء جداً.. كان.. كان معها بقجة هدوم.

اتسعت عينا موظف المحطة. صاح:

– نعم هى.. وجدناها مغمياً عليها علي الدكة.. نقلناها للمستشفى العام.

في الاستقبال بالمستشفى قالوا في الدور الثالث حجرة رقم ٧ نساء. أمى تجرى خلفى، نحاول الطيران إلي زينب. السرير خال، النسوة مريضات والبنات شاحبات، لم نجد زينب، قلن: كانت هنا.. في الفجر كانت هنا.. لا.. في الصباح.. لا.. منذ قليل كانت هنا يا أستاذ.

بقجة هدومها تحت السرير. أنا وأمى بحثنا في كل الحجرات: نساء وولادة، أنف وأذن، جراحة، عظام، عمليات، باطنة، قسم الرجال والأطفال وحجرات الأطباء. و.. نظرت بيأس في عينيى أمى. همست أمى مستنكرة:

– دورة المياه !!!

دخلت أمى دورة السيدات، لم تغب، فقد خرجت في هلع وزعر تنادينى وتنادى النسوة. كانت زينب جالسة علي قاعدة الحمام ورأسها مرميا للخلف. لاتتنفس.

وجاءنى الصوت النوبى الحزين الرفيع من البلاد البعيدة

حاسب عليها يامدليها

مالهاش ولد أوعك تعريها

حاسب عليها يامنزلها

مالهاش ولد أوعك تبهدلها"

نزلت درجات سلم المستشفى العام استند علي الدرابزين اللامع وأنا أردد صوت سيدة غامضة ينوح

حزنى عليك ياللي انطردت بعيد"

وهـــج النـــار

التقينا بالموت مجدداً

لا تنظر في عيني يافريد لا تـردد شـعراً فـي داخلك، لا تقسوا عليّ، أنت فـي القـاهرة نعـم وأنـا بالمحلة، لكنه عاطف لم يكن في أي مكان في العـالم. أختبأ تحت جلده. قال لي أن اسمها نعمات وتعيش فـي حارة الأقباط في الدورالثاني وأن رقم بيتهم ٩ وحـدد لي شكلها واسـم أبيهـا الأسـتاذ حامـد بالتأمينـات الاجتماعية قسم المعاشات. كـان يـردد فـي شـدته بالمستشفى: "ياترى ياواحشني بتفكر في مين ويهمـس نعمات، وكان مجرد أن ينطق الاسم تعلو الفرحة علي وجهه وينظر لي بطرف عينه، فابتسم له وأميل علـي فمه فيردد نعمات.

قررت أن أتوجه فورا إلي حارة الأقباط، وجـدت المنزل وضغطت علي الجرس.

ماذا سأقول للأستاذ حامد، عاطف يموت و زيارة نعمات ستجعله أسعد ميت في العـالم. مـاذا سـيفعل الأستاذ حامد. كنت وحدى يافريد، لو "محمـد" معـى. خرج لي الأستاذ مرتديا الـروب الأنيـق بـص فـي وجهى مندهشا، فقلت له يا أسـتاذ حامـد. ونزلـت أتصبب عرقا فلا هو الأستاذ حامد ولا توجد بنتا فـي

حارة الأقباط أسمها نعمات بل ولا يوجد أي موظف يعمل في التأمينات الاجتماعية!

أتعتب عليّ يافريد. لماذا تلتمع عينيك بدموع لا تنزل.

جمع "عاطف" كوما هائلا من الجرائد وأحرقها في والسعاية. ضحك فريد متذكرا "أم مكيّة"، ضغطت علي شفتى السفلى وحذرته بنظرة ليمسك عن الضحك. كان "عاطف" قد غاب عن الدنيا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لم يستطع أبوه فعل شيء، هو العالم بأمور الضغط والأشعة وقيء الدم. ملاءة السرير أمامى مغطاه بالدم، ذلك الدم الذي لم يكتب له "عاطف". كان الدم – زمان – دم الشهداء والثوار، وكان دما يبعث علي الفخر والتضحية والأمل في غد لا يحدث أبدا. لكن دم البلهارسيا!!

حدقت في وجه عاطف طويلا. محاولا عبثا أن أمسك بالوهم الذى كان! همس لي فريد: هل تذكر "أم مكية"

نعم.

قبيل الربيع ينتابنا النزق، نجرى مثل أطفال، فريد يخرج علبة الكبريت.

هيا نشعل الحرائق.

الحرائق والصراخ وهوس الفرح، حرائق الرسوم الجميلة، التى تعكس وجوها راغبة في الحياة، و السخونة التى نتلذذ بها ونحتملها حتى الاحتراق. كانت الشمس أشد وأقسى فوق رؤوسنا والنعش فوق الأكتاف ونحن نهرول، لنلحق به. تمتم فريد:

هل هو ولي؟

كنت أخاف أن أدق الباب فيخرج لي أبوه، ويدفعنى في صدرى فانزلق علي درجات السلم!

قبيل الربيع يجرى "محمد" باتجاه الحقول الممتدة أمام بيتنا. يجمع أعواد الحطب والقش، يطارد الضفادع والحشرات ويجمع الحشائش الناشفة في حضنه، ذات مرة، وهو عائد بكنزه أمسكته يد جافة وسأله الفلاح: من أين جئت بالقش.

ابتسم "محمد" ابتسامه مرتعشة وأشارعلي حقل الفلاح ولم يكذب. قال الفلاح: سأتركك هذه المرة ولكن المرة القادمة.. لا.

في كل المرات التالية كان"محمد" يجرى إلى حقله ويأتى بالقش والحشائش الجافة !!

أراه الآن شابا نحيلا طموحا وعاطف يجرى خلفه يطارده ويستولى علي كنزه، انكفأ عاطف، وتمزق البنطلون فوق الركبتين.

جاءت "إفراج" بالحطب والجلة الناشفة، كان عاطف يحب أن يشعل هو النار، تطقطق الألوان، يصير للنار صوتا. عندما ترتفع ألسنة النار أكون أول من يقفز. "يا أم مكية" نظفينا من أخطائنا. "يا أم مكية" لا تحرقينا فنحن أطفال نلهو في أول شبابنا. "فريد" الأطول طار متخطيا النار: خذى عنا البراغيث ونظفى ملابسنا من النزوات. طار فريد. إفراج تصفق وتغنى فتأتى البنات إلي النار كالفراشات محلولات الشعر حافيات الأقدام صدورهن تبرز بالكاد تحت الجلابيب، تلتف البنات حول النار وتتسع الدائرة، "عطيات" تتقافز مثل عنزة، نهداها الأكبر بين البنات، عيونها الأجمل والأذكى. البنات تجرى تحضر مزيداً من القش والجلة، يصرخن قافزات كأنهن نقوش نحيلة في كهف. قادهن "عاطف" بحماس وقد لف حول رأسه ضفيرة من العشب. وقف فوق كوم تراب وأشار بفرع شجرة أن يسكتن فسكتت البنات، وأنشد قصيدته عن الأميرة المستحيلة. بحلقت كل بنت في الأخرى ثم انطلقن ضاحكات، عدا عطيات التى بصت للسماء المظلمة.

جرى عاطف خلفهن ممسكا بفرع الشجرة، يزعق زعقة "طرزان" ثم خلع دائرة العشب عن رأسه ليلحق بهن، فيما فريد يذكرنى بتاريخ النار، والهنود الحمر والثورة، وأذكره بأزمة البترول فاحتضننى قائلاً: هون على مخك.

رجع "محمد" للخلف. محمد النحيل يريد أن يقفز. ماذا ستقول للنار يامحمد؟

- سأقول للنار أحرقى كسلى.

رجع وتقدم بقوة وطار وحط في وسط النار. انخلعت القلوب، لكنه نهض في سرعة قطٍ، لم تلسع النار سوى يديه، شدته عطيات ثم أخذت في الضحك، وأزداد ضحك البنات ورجعن للخلف، رفعن جلابيبهن وطرن، سيقان وأرجل حافية جميلة تجدف في الهواء. وقفت مبهوراً إذ تنحسر جلابيبهن وتلتمع أفخاذهن بلون النار وفي الأعلي لايبين شيئ. ترى هل كانت عيونهن ترتجف أم تشع فرحاً !!

العيون محمرة بألم الفراق.

زرته من يومين فقط. قال الطبيب سيموت عاطف بعد شهر. لكنه مات اليوم! صرخ الجميع، وانخلع قلبى حين انفتح باب المقبرة، أمسكت بفريد فأمسك بي. وقف الشيخ و سيطر بصوته ذى الرنة الجميلة علي الصرخات والدموع فسكتت النسوة وسكت صوت الشاعر وانسحب الرجال.

جلست فوق مقبرة مقابلة، وفريد يمسح دموعه.

خبت النار. ولم تمش عطيات، مسحت عرقها، جاءت بجانبى وهمست لا تستحم اليوم. استحم غداً.

في الظلمة التي خلفتها النار أمسكت بيدها الساخنة، همست: يدك ساخنة. وشممت رائحة الدخان في ملابسها، ثم جرت مثل مهرة باتجاة الحقول.

في اليوم التالي قالت أننى غبى لأننى لم ألحق بها.

انفض الجميع، وصعدنا تسبقنا إفراج إلي الحجرة. فتحت حنفية المياه الممتدة بماسورة فوق السطح فاندفع الماء باردا وغسلت رأسى وساقى وقدمى ونفخت الصهد من فمى.

خلع فريد قميصه وفانلته الداخلية وحذاءه وظل تحت الماء يصرخ ويغنى ويضرب الأرض برجليه وسط ضجيجنا العالي، فيما مدّ محمد يديه الصغيرتين إلى الماء ومسح وجهة وأنفه.

في الحجرة أرتمينا فوق الكنبة والسرير. مد محمد يده إلي المكتبة وجذب كتابا وقبل أن يفتح الكتاب شهق عاطف وأشار لقطع البنطلون علي الركبتين.

خلت المقابر إلا منى وفريد وعصافير تزقزق عالياً

ينقطع عن الذهاب إلي المعهد، وفي طريقه إلى السطح يسلم علي أمى وإفراج ويتلعثم، تقول أمى في ود:

- اطلع يا ضنايا.

يجلس في حجرتى وحده. يرتب السريروالكتب، ويكنس الشرفة ويجلس فيها حتى الغروب، أمى تقدم له الأكل، وتقدم له إفراج الشاى، وهو يقرأ حتى ينام في مكانه. عندما أرجع يبكى. لماذا تبكى ياعاطف؟ وأعرف الإجابة، لكنى أمدّ له حبل الكلام. يهمس كأنه في مسرح وحده وليس سوى بقعة ضوء علي وجهه:

- الغول.

- الغول وأنا.. أحدنا سيقضى علي الأخر.

أنزلقُ تحت اللحاف وأتمدد علي السرير، وهو يلف نفسه بالبطانية ويقرفص علي الكنبة. أساله لينتعش عن أخبار البنات في المعهد.

يخلع نظارته السميكة، يلمعها، ويقول باشتهاء:

- البنات !!

يحدثني عن مغامراته التي لم تحدث.

كنت أحب خياله، وأشعر بالأسى من أجله.

يضرب الحائط بيده.

- أكرهه.. أكرهه.. أكرهه.

كان يمتلك رغبة عارمة لتغير العالم، ويعشق "ماو تسى تونج".

- أكرهه.

يعشق "أبو القاسم الشابى وعندما يقول شعراً يصير طفلاً، يفرح باللفظ الحلو وتغلف شعره رومانسية قديمة.

تحولت ثوريته إلي هواية لعمل مجلات الحائط، يصنعها بخطة البديع وألوانه المدهشة واختياراته الذكية من أشعار توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش وبريخت وايلوار وأمل دنقل. يكتب مجلات الحائط لأي جماعة وأى اتجاه و يبتسم ساخراً من نفسه:

- ديمقراطية.!!

كان وجوده أحياناً يثقل على. أعترف. عندما أرغب في النوم أو الكتابة أو عند اقتحام البنت توحه لحجرتى.

راح، والأب مشى بعد العزاء. وفريد يخط علي التراب الناعم عاطف. ثم أدمع كيتيم، وأخذ يقول شعراً تلقائياً غاية في الحزن، التقطت منه كلمات: التراب والفرح والخيل والطفل العجوز الغامض. ثم نهنه حتى أنى بكيت لبكائه.

كان علينا أن نحل مشكلة البنطلون الممزق. الأب لن يقبل أن يرجع عاطف بالبنطلون ممزقاً. ربما طرده أو ضربه، محمد يهمس لي بدهشة:

- عاطف هذا الرجل، يخاف من أبيه!!.

ثم قلب في الكتاب الفخم. قلت يومها أبو عاطف هو القاسى السيئ. وتحدث عبده عن السلطة الأبوية تحدث وتحدث حتى نام الجميع عداى أنا الذى تظاهرت بالصحو. فريد في طول عاطف، ذهبت معه إلي منزله، وشد فريد من الدولاب بنطلوناً قديماً شبيه ببنطلون عاطف، ضحكنا وسخرنا، وشاركنا عاطف حتى سالت دموعه.

هل اشترى أبوك يا عاطف قماش الكفن؟ أم أعطاك كفنه الذى يحفظه من سنوات في دولابه؟

تمنى كثيراً لو أنه رأي أباه ملفوفاً بالكفن. حرام ياعاطف. ويبكى.

- أحمنى في حجرتك أنا لا أذهب إلي المعهد.

ولا استطيع الرجوع إلى البيت.

ثم ينام ويشخر مثل كهل.

تقدم منا عجوز يظلع، رابطا رأسه بمنديل محلاوى بهتت ألوانه ممسكا بفرع شجرة تقدم، وشخط فينا:

هيا.. أمشى يا أفندى

أمش..

خرجنا صامتين. وكنت خائفاً من الذي يظلع، أمسكت يد فريد، ضغط علي يدى ضغطة الحارس العطوف.

في الشارع قلت لفريد: لازم نشترى رخامة ونكتب: فقيد الشباب عاطف.

ولم يحدث حتى الآن.

حتى لا يفزع المغني

والآن

ماذا أفعل بك أيتها القصة القصيرة؟

أشم الآن رائحته رغم الموت. ضحكته تسكن ذاكرتى.

أهفو لنظرته الثاقبة لقصصى، لروحه الساخرة من فظاظة الحياة.

أهفو إليه ليمنحنى بعض الحب، ويحمينى من قبح يهجم بأنيابه.

أغلقت آخر صفحة أدبية محترمة كانت تنشر لنا. كان آخر الوجوه المحترمة، ترك المبنى كله وجلس فى بيته بعد أن تغيرت الساحة ولم يعد للفرسان أمثاله مكاناً.

لم يستطع ربط الحمار كما يشاء صاحبه. وكان علينا أن نبحث عنه، نلقاه صدفة فى المقاهى أو البيت أو فى السينما أو على هامش ندوة. أعطيه القصة يقرأ على مهل. ثم يخلع نظارة القراءة، ويضع النظارة العادية، يتأمل ملامحى، يرشف الشاى. لو ابتسم انتظر صفحة يوم الجمعة. الآن لم يعد صاحب صفحة، لكن رأيه أهم من جرائد العالم.

انتهى من الشاى، وقراءة القصة. وضعها أمامه، بلعت ريقى.

– ما رأيك يا عم عبد الفتاح؟

يضحك عالياً، يضرب كفاً بكف، يزعق بإعجاب:

– يا ابن الكلب كيف كتبتها؟

– قم

فقمت، عزمنى على فول بالبيض، وأخذنى تحت إبطه وسرنا فى شوارع القاهرة المزدحمة. من كتفه الأيسر تتدلى حقيبته ذات اليد الطويلة، فى أول الشارع يفتحها يرمى جرائد الصباح، وفى وسط البلد يشترى كتابا جديداً، وعند سور الأزبكية رمى مجموعة قصصية لشخص لا يعرف الكتابة كما يقول، يشترى ثلاثة كتب قديمة من سور الأزبكية ويحشرها فى حقيبته، ومن الكشك يشترى النعناع ويدسه فى جيبى، ويرمى علبة الكبريت التى لا يستعملها. فى الأتوبيس يحدثنى عن القصة ومفردات اللغة والعالم. فى الشارع الخالى نصحنى أن لا أتخلى عن رؤيتى الطفولية للعالم مردداً إنها تكشف وسخ ما نعيش.

فأدمعت من الفرحة. توقف وهو يقول، فارداً ذراعيه:

لا يا روح أمك.. لا أحب الأفلام الهندى.

ولما حكيت له عن موقف الكثيرين من قصصى، قال ببساطة:

– هل تريد أن تكتب عالمهم؟

فتح الشبابيك، دخلت نسمات سبتمبر الحانية، لمعت نظارته التى على المكتب بطرف قميصى. جلست أمام التليفزيون أشاهد الفيلم الأجنبى، وكان لا يكف عن الحركة.

عندما حاولت أن أساعده شخط فىّ:

– إجلس يا حمار..

ثم ضحك معتذراً وأضاف:

- السمك ليس أكلة طفولية.

لم أعترض على تناول السمك فى العشاء، كان سعيداً جداً، ويسأل مثل أم:

- أعجبك الأكل !!

- ما رأيك فى السمك.. والأرز.. والسلاطة؟!

استأذنت أن أعد الشاى، فوافق وتمدد، وكان سعيداً وهو يقرأ قصة قصيرة لعلى المنصورى.

حاولت التعرف على نباتات الظل فى الشقة، عرفت بعضها، وبعضها أدهشنى شكله. شممت رائحة الريحان ولما قلت إعجاباً "الله" سألنى بفرح وتحد:

- ما هذا ؟

ابتسمت قائلاً:

- ريحان قدسى.

فرح أكثر، وسألنى عن الزرع والغيط والنهر وطفولتى وأمى، حكيت له وكان سعيداً مثل طفل، حتى وصلت إلى حكاية الجنينة وكيف تحولت إلى دكان للأمن الغذائى. زعل وصمت، ثم أزاح التربيزة الصغيرة وفرّ إلى المكتبة. سألنى عن بعض الكتب وعندما وجدنى لم أقرأها شتمنى وأعطانى إياها. حكى لى أنه يهوى التصوير الفوتوغرافى وأنه يتحدى الشمس فى لقطاته ويحب الظلال التى تحول الواقع إلى فن. قال إنه كان يحب التدريس ولكن "الأدب غلاب"، وقال إنه قد انتهى من روايته. تطلعت فى أنحاء الشقة ترى لماذا لم يتزوج. سألنى فجأة:

- أتعرف عمل الشاى بالنعناع !!

داعبته قائلاً:

- لا بالقرنفل.

ضحك.

عندما ترك الجورنال وجلس فى بيته، رحنا نلملم الأوراق ونكون الجماعات ونصنع المجلات "الماستر"، أصبح لكل جماعة مجلة، نجمع القصص وننسخها، ونصورها، ونوزعها، ونقرأها. كان الحل الوحيد فى زمن أغلقت فيه المجلات والجرائد ورحل الجميع. وظل هو فى الشرفة يرعى زرعه، وكتبه، ويقرأنا باهتمام. عندما أشرت له على الأصدقاء الذين رحلوا للخليج للعمل وإنه يمكن أن.. زعل منى بحق. وأردف انه لن يموت من الجوع وأن كيلو السمك يكفيه يومين.

طبطبت على كتفه واعتذرت:

- لا تزعل يا عم عبد الفتاح.

أول مرة رأيته فى مكتبه بالجريدة كنت أرتجف، لكنه احتضننى من اللحظة الأولى.

وعشقت النشر فى صفحته، وبمكافأة قصة اشتريت "فازة" ورد وأهديتها لهدى قبل زواجنا،

باغتنى قائلا:

- هل سنموت هنا؟

- تعال ننزل.

نزلنا.

قفزنا من الأتوبيس، تركنا الأزهر خلفنا وعبرنا الشارع: فى ميدان الحسين أمسك يدى. ضغط ضغطة خفيفة، وقال:

انتبه جيداً للشحاذين والجنود والهاربين من القانون والمطرودين من بيوتهم والهائمين على وجوههم والمنتظرين قطارات الصباح.

ودخلنا "خان الخليلى هاجت رائحة البخور، وتلألأت الأنوار، وصارت الدنيا تحفة من الأزقة الضيقة الدقيقة

الجميلة، وسبتمبر يقعى جميلاً بنسماته بجوار كل الدكاكين كعجوز يعطف علينا.

أوقفني أمام دكان. سألنى:

- ما رأيك؟

الصحون النحاسية المنقوشة بدقة تلتمع فى إحمرارها، والعقود الصغيرة ألوان تسبح خلف بعضها، والتماثيل الفرعونية تؤكد على مصرية أصيلة داخل المشهد الحسينى.

قلت:

- لوحات رائعة.

همس فى أذنى:

- لا أقصد اللوحات..

- تابع أيدى الصبية الماهرة.. وهى تنقش الفن والتاريخ.

الصبية يعيدون حضارة الأجداد منقوشة "توت عنخ آمون" و "كليوباترا" و "نفرتيتى و "أبو الهول"

حذرنى من السائحين فقد تأكد أخيراً بعد معاهدة السلام من وجود الصهاينة الذين داسوا أرضنا، ويدرسون آثارنا ويسرقونها أيضا.

تابط ذراعى وهو يشرح لى كل مبنى ومسجد ونقش، وحكى لى عن الفاطميين هامساً:

- نحن الآن فى قاهرة المعز.

كنا نشرب الشاى الأخضر، قال من زمان لم أر بلدتى. وبشجن حكى عنها كأنها البلدة الوحيدة فى العالم، رغم أنها غيطان ونهر وناس وكلاب وفقراء، حكى عن كُتَّاب وتلاميذ ومناضلين قابلهم فى حياته. وانتابه بعض أسى وهو يحدثنى عن أقارب وأهل وشخوص لم يعد يراها وحوارى نسى

ملامحها. قلت له بيتي راح ولن يعود، فقدت جدران حلمي وعبق حياتي وطين الزرع صار مقبرة، لم يتركوا سوى الجهنمية تتمدد بشراسة على السور وتتحدى الأخضر. حدثته عن الضفادع والجراء وأبو غزالة والجراد والهداهد والعنزات والحدآت، الكائنات التي كانت تعيش معي، وتذكرت الخفاش. ابتسم عم عبد الفتاح وسألني أن أحكي عن أبي الجزار وصاحب ألف ليلة، صاحب العيال والبيت والجنينة. وما أن حكيت عن الجني صاحب أبي حتى وقف منتصباً ضاحكاً صاخباً ضارباً كفاً بكف، وحلفني بحياة أمي أن أحكي له مرة ثانية وثالثة ورابعة.

حكيت وعندما وصلت لحكاية أخي والكلاب الشرسة والدكان. نهض وقد تجهم وجهه وشدني من يدي، وعبرنا الشارع:

– سندخل وكالة الغوري.

صعدنا السلالم القديمة القليلة وقفت وألقيت نظرة على الجامع المقابل والشارع الضيق الممتد. ودخلنا.

المكان أكثر برودة، وارتفاع أسقفة وقبته لافتة للنظر.

تلك كانت مدرسة الغوري، لا تفرح بإنجازات السلطان، فالمدرسة أخذها غصباً وقرر أنه هنا سيدفن وسيكون أكبر مزار بالقاهرة. وبكى "الطواش" لأن السلطان ضن عليه بالدفن.

وفي أول كل شهر عربي يجلس، وفي طلعة رمضان يزحف كبار القوم لتهنئته، وجلسنا. ترى أهنا كان سيقيم الضريح، أم هنا، أم هنا كن سنأتي زرافات نقف أمام الضريح نقرأ الفاتحة، ونقرأ تاريخ ميلاده وبطولاته وتاريخ موته العبقري. ولكن في "مرج دابق" طلعت روحه. قال عم عبد الفتاح:

– كل هذه الأماكن سترجع للشعب مسارحاً

وأندية ومكاتب..

ثم ضحك عالياً، فارتج المكان من الضحك.

- الطواش لم يخسر كثيراً

فى "مرج دابق" طلعت روحه، هل للسلطان "سليم" فضل!

أخذنى عم عبد الفتاح تحت ابطه وهو يهمس:

يقول بن إياس لم يعثروا له على جثة أو رأس كأن الأرض ابتلعته..

وسألته

- من انتصر عليه.. الحصان أم سليم ؟

ضرب رأسه بكفه:

يـــاه

اقترب شخص نحيل، همس بألفة:

أى خدمة يا أستاذ عبد الفتاح؟

أشار عم عبد الفتاح بإصبعين اثنين، ولم ينطق، مضى النحيل، تناهت إلى أسماعنا نغمات عود خافتة. قال عم عبد الفتاح:

- هنا كان يريد أن يدفن، مساوئه أكثر من محاسنه.

هناك فى البرارى نهشته الذئاب والنمور وحط عليه الذباب، كل السلاطين تقتل وتغتال وتهرب. لم يبكه أحد، لأننا ننتظر ونمتثل لكل السلاطين من قبله وبعده.

ارتفعت نغمات العود، ابتسم عم عبد الفتاح، وشدنى من يدى بهمة إلى مكان مستطيل واسع، وعلت نغمات العود الشجية.

تسحبنا ببطء حتى القاعة، كانت خالية باردة، وفى ركن قصى كان متكوراً على عوده، تبينته، عجوز يعزف، وصلنى صوته خافتاً يقول بانكسار أغنية كانت حماسية عندما غناها سيد درويش.

يغنى كالعويل:

"قوم يا مصرى
مصر دايماً بتناديك"
تنويع على اللحن، لكنه كالعديد
قوم
قوم
قوم يا مصرى
يا مصرى"

عقد عم عبد الفتاح حاجبيه دهشة. وتقدم ببطء وحذر حتى لا يفزع المغنى لكن المغنى لاحظنا، فتوقف عن الغناء والعزف، وضع آلة العود على كرسى أمامه، وعبثت أصابعه فى الجاكيت القديم حتى أخرج علبة سجائره، أخرج سيجارة وأشعلها، ثم قال بلا مبالاة..

- أقعد يا عبد الفتاح..

ضحك عم عبد الفتاح ضحكة عالية، ابتسمت للرجل ابتسامة خفيفة وانحنيت انحناءة خفيفة، لكنه لم يبال.

شد عم عبد الفتاح كرسيين متباعدين وهتف:

اجلس يا جابر.

لم يقدم أحدنا للآخر، وقال للمغنى مداعبا:

- أتلحن بمزاجك !!

بالذمة لو قالها سيد درويش هكذا

لنام المصرى.

كان المغنى مهموماً، يتنهد بزهق، وينفخ دخان سيجارته بغيظ، ثم شال آلة العود وحطها على ركبتيه. ثم قال بنفاذ صبر:

- اتركنى يا عبد الفتاح..

ضحك عبد الفتاح، وضم المغنى، بحنو، وقال بصوت خفيض.

- هل تعرف أن التاريخ ابن كلب؟!

سأحكى لك.

واخذ يحدثنا عن التاريخ المنقسم إلى تاريخين تاريخ الحكام وتاريخ الشعوب، وقال

- إنهما لا يلتقيان..

وإن الشعوب..

قاطعه المغنى، مستغربا:

- مصر فراعنة، وقبط، وفسطاط

وقاهرة، وأتراك..

ابتسم عم عبد الفتاح وبهدوء قال له:

- إذن غن..

ونهض واقفاً أمام المغنى قائلاً:

- غن.. وبحماس

حتى لو كنت آخر من يغنى.

حملق فىّ المغنى بعينين ضيقتين، انتابنى شعور بأن أقبل رأسه، وأعتذر عن أشياء لا أعرفها، كان مسكيناً لحد بعيد، ومتألماً بشكل لا أفهمه. وقف عم عبد الفتاح أمامه.. أشاح بوجهه عنى وسأل عم عبد الفتاح:

- شاعر !

همس عبد الفتاح للمغنى:

- حكاء.. إنه حكاء.. يحكى..

بص المغنى لى طويلا، أشار برأسه أن أجلس فجلست، مد يده وأخرج الريشة من جيب الجاكيت، ثم ضم العود إلى صدره.

دخل النحيل حاملاً صينية فوقها كوبين من الشاى، يمشى على أطراف أصابعه، وضع الصينية فى صمت وحذر. ثم خرج.

ضرب العجوز بريشة، ثم غنى على مهل:

"قوم يا مصرى

مصر دايماً بتناديك"

ردد عم عبد الفتاح بعده، وبقوة، وبأداء سيد درويش:

"خد بنصرى

نصرى دين واجب عليك"

وكنت اوقع بيدى على فخذى، وسرى دفء فى المكان، التمعت عينا المغنى، وعزف بحماس وأنشد وأصواتنا معه كأنها تهتف:

"قوم يا مصرى

مصر دايماً بتناديك"

البكاء طائر محبوس

الآن أصبح دكان أخى حقيقة، يبيع فيه البيض والفراخ والكبد والقوانص. وكتب لقب عائلتنا واضحاً كبيراً على لافتة بديعة. وقف الصبية فى الدكان، وجلس أخى باعتزاز وزهو أمام بيتنا الكبير. تنفست الصعداء وارتحت كثيراً بعد بناء الدكان، فقد كنت أخشى مشكلات تقطع أوصالنا وتمنيت أن ينجح مشروعه واتصور أن نجاحه ربما أصاب لقب العائلة الذى وضعه بفخر على باب الدكان، بدأنا جميعاً نتعمد أن نشترى ما نحتاجه منه، هو نفسه أصبح أكثر وداعة، طابت نفسه كثيراً وجلس سعيداً على كرسى أمام البيت، فى الممر تمرح الكلاب التى يقتنيها. سلم علىَّ، يكاد يأخذنى فى حضنه، مررت بين الكلاب مرعوباً، كان أبى جالساً فى صدر الصالة والتليفزيون يبث برامجه التى لا يراها. تهلل الصغار أولاد عمر، سألت عن أمى فقالوا فوق السطح.

زعق أبى وطلب السجائر وكنت أصعد درجات السلم على مهل. ذات الدرجات التى تشكلت عليها خطواتى. عبرت أمام شقة عمر الهادئة بلا صوت. قفز ديك فجأة من اعلى درجات السلم وكاد يصطدم بوجهى.

ضاق صدرى قليلاً، ثم انكشف السطح أمامى، أصبح مهملاً، القش والحطب فى الأركان وأمام حجرتى القديمة. الطيور والأرانب كثيرة ومنتشرة. لم ألحظ أمى بسرعة، مددت يدى بوجل وضغطت على مقبض الباب فانفتح، الحجرة خالية والأشعار التى خططتها باهتة على الحائط، وبقايا صور وألوان، والسرير – سريرى – غير مرتب وسجائر أبى متناثرة عليه، وتذكرة داود، والمصحف على يسار الوسادة، ودجاجة منكمشة فوق اللحاف. قرأت أبيات محمد صالح مرة أخيرة:

"وشمتنى فى ذراع النيل يوماً شجرة..
واصطفت من رملة الشاطئ
طينى

تراجعت ببطء وقفلت الباب بحرص حتى لا أزعج الدجاجة. كانت النسمات باردة والسحب البيضاء تمضى فى هدوئها. ناديت على أمى ولم ترد ! بصصتُ عليها فى العشة الوسطانية، وفى البلكونة التى أصبحت مخزناً للأقفاص القديمة والأحذية البالية وجرة المش. ولم ترد !

دفعت ببطء باب حجرة الفرن الذى زيق، كانت جالسة فوق ارض تكسوها ردة قديمة وبقايا قش أرز، لفت برأسها تجاهى وبسرعة شدت طرف طرحتها ومسحت دموعها وتمخضت وقالت وهى تنتزع ابتسامة:

جابر.. تعال ياخويا..

ركعت على ركبتى بجوارها، أخذتها تحت إبطى.. سألتها:

– كنت تبكى ؟!

قالت نافية كاذبة:

– لا..

قلت لندخل فى الموضوع.. مؤكداً:

– كنت تبكى يا أمى.

ولماذا أغلقت على بكائها باب حجرة الفرن؟ ولماذا حطت نفسها فى تلك الظلمة. رفضت ان تخرج للسطح، وقالت بصوت سمعته بالكاد

– خلينا هنا يا جابر

ثم أخذت تهتز ببطء للأمام وللخلف. وأمسكت برأسها فى آهة ربما قالتها وربما سمعتها من داخلها وربما أحسستها، ضغطت بأصابع مرتعشة على جبهتها. ثم آهة عالية خِلتُ أن البيت قد اهتز وأن الأولاد والبنات حدث لهم خلل بيولوجى، وأن أبى فزع ورفع رأسه باتجاه السقف، وأن أخى الأكبر شعر بغصة، وأن الصغرى لطمت وجهها، فيما شعرت بأن روحى تسوخ آه.. ثم تمخطت بجانبها على الأرض، وإذا الدم كأنه انبثق من جرح، دم غزير قان، فزعت، زحفت على ركبتى، ضممت رأسها فى حضنى وأنا أتمتم:

– أمى.. لا تزعلى.. من أجلى.. حرام..

كانت عيناها أكثر اتساعاً من الدموع والدم..

– ماذا يا أمى..

همست فى رجاء:

– إحكى لابنك الصغير.

نظرت لى.. قالت في وهن:

– أخواتك البنات.. البنات يا جابر.. يردن نصيبهن فى البيت، البيت الكبير، بيت أبيهن، وأبوهن مازال حياً على وجه الأرض..

البنات يردن نهش جسد أخوهن يـا جـابر.. وعمـر لا يعرف، لا يعرف عمر، اكتم عنه السر، وادفع البنات، للخلف أدفع البنات، أضربهن على أفواههن حتى لا ينطقن، كل بنـت وراءها زوج يحيلها علينا.. يردن حقهن ونحن على وش الدنيا ونهنهت. وأكملت:

- الدنيا غادرة يا جابر، ما كنت أحسـب أن البنـت تريد أن يمسك الأخ فى خناق أخيه، والابـن فـى رقبة أبيه،

لما نموت.. لما أموت أنا وسيد أعطوا لهن حقوقهن..

يا بنى.. من يخالف الشرع !

ثم همست كأنها تهمس بكارثة:

- والكبير، الكبير يعرف كلامهن.. يقلنه فى السوق، والسوق

ينقل الكلام للبيوت،

والكلام يعرف طريق أذن الكبير.. والكبيـر يصـمت فالصمت يحصنه، وينتظر، ويتمنى أن تلفظ إحـداهن بكلمـة حتى يقطع لسانها بالسكين، والسكين فى الدكان والدار وفـى متناول اليد، وأبوك كفيف.. والكفيف يحلم..

وأحلام الكفيف تحب الدنيا والألوان والطيـور ولـون النهر الذى فارقه..

ومسحت الدمعة المنسابة، تنتظر فى وجهى برجاء..

وتواصل كلامها

- يا جابر اذهب إلى هدى حتى لا تكون مثلهن وتجعلك تقف فى وجه أبيك وأخيك وأمك.. يا جابر.. تسألنى لماذا أبكى وضغط الدم يدفع الدم من أنفى؟

لأننى لا أنساه.. اسماعيل ابن أمى وأبى.. مات
فى عز شبابه.. فى عز شبابه تركنى ومشى، كنت
أخته الوحيدة وكان أخى الوحيد.. لماذا لا أبكيه
وهدومه ما زالت فى دولابى.. ودولابى به رائحة ملابس إسماعيل.. لم أغسل ملابسه حتى لا يطير عرقه..
أريده على وش الدنيا، وأخواتك يردن حقهن فى أخيهن والدكان والبقرة والعنزات والفراخ التى
على السطح.. أبكى دماً على أبيك الذى فقد بصره وفقدت أنا الدنيا.. أبكى ايامنا الحلوة التى راحت، أبكى
فرحة بناء الدار وزرع الجنينة وجر الماء من النهر، أبكى فرحة أول مصباح كهربى دخل دارنا، وأول راديو اشتراه "سيد"
مسحت الدم المنساب من أنفها فى طرحتها السوداء..
واصلت:
- لا تسألنى لماذا أبكى يا جابر فقلبى ينفطر.
فجأة طارت دجاجة من فوهة الفرن التحتانية وخلفت بيضة فوق تراب الفرن الناعم الذى سحقته نيران كانت متأججة.

كان.. يحب الجراء

وقفت أمام البوابة الخشبية الصغيرة التى صنعها ابى من قديم الزمان، وقفت فى هلع، فقد نهض الكلب الضخم النائم أمامها وزام واحمرت عيناه وسال اللعاب من فمه. رغم ظلمة الليل رأيت ما أحكى.

أرسلت أمى وقالت أن أبى مريضاً. تركت اللقمة من فمى وجريت. وقفت أمام الكلب الذى تمدد مرة ثانية لكنه لم يرفع عينيه عن عينيى.، وانتابتنى رجفة.

وأنا.. كنت أحب الجراء.

الجرو فى حضنى، ويمشى فى ظلى، وينام على حجرى ويجرى خلفى يلهو ويلعب، أحممه، فى الشمس أشمسه، يقفز على صدرى يتشممنى لا يخمشنى، الجرو من يدى يأكل ويشرب، وينتظرنى حتى أفرغ من لعبى، يدخل معى حتى حجرة أبى، أتمدد يتمدد، ألاعبه، أشده من أذنه مداعبا. يمضى معى إلى شاطئ النهر، ندخل الغيطان، يقفز معى فى المركب، وفى الظلمة يؤنسنى، معه أقتحم الحارات المظلمة، وأرجع عابراً قضبان قطار – الدلتا، ويلعب معى فى قطار البضاعة، وحين صرت تلميذاً كنت أخرج من المدرسة فأجده منتظرنى، حوله يلتف أصحابى يلاعبهم، يلاطفهم، يضاحكهم فيضحكون.

كان عندى جراء سود وبيض وحمر وصارت كلابا، راحت سلالات وجاءت سلالات.

لم أر الكلاب أبدا شرسة وشريرة كما أراه الآن الممدد أمام دار ابى، وقد حال بينى والدخول، لأرى أبى المريض بالحجرة المظلمة التى فوق السطح.

ريح سبتمبر

هل الطريق إلى العلمين مازال طويلاً!

ابتسم عبده وهو يقود سيارته الزرقاء، ترك عجله القيادة وأخذ يصفق ويغنى بفرح شاب أغنية شادية

"سوق على مهلك سوق

بكرة الدنيا تروق"

ثم بصق بغضب وهو يزعق:

– أين بكره يا ناس؟!

كنت وفريد نجلس فى الخلف، نستمتع بالشمس حيناً، وبالدردشة أحيانا. ومنصور بجوار عبده يحكى بلا توقف حكايات لم تحدث، كيف سافرفى باخرة لأنه يخاف الطيران، وفى سبتمبر لأنه يخاف المطر، سافر مثل أهل قريته حتى لا يعايره احد بأنه لم يسافر مثلهم ويعود من المنفى الجميل، بعد عشرات السنين محملاً بالثلاجة والريكوردر والنجف والمروحة والجلابيب والمسابح ويبنى العمارة والفيلا ويتزوج من الراقصة المشهورة التى اعتزلت وتحجبت. ضحك فريد حتى خبط مؤخرة رأسه بالزجاج. يحكى منصور مغامراته التى لم تحدث مع الراقصة على كل أسرة الفنادق، وكيف اشترى سيارة أفخم من سيارة عبده الزرقاء الهزيلة التى اشتراها بالتقسيط غير المريح.

قال فريد مازحا:

– عبده صار برجوازيا.

بص عبده علينا، فضحكت، ثم سألته بدهشة حقيقة:

– لماذا نقطع كل هذا الطريق للمقابر.

قال فريد:

– لابد أن ترى العالم يا جابر..

ثم زر عينه وسألنى:

– ألم تحلم أن ترى العالم !

هززت رأسى نفياً.

كانت هدى تتقيأ فى الحوض الحديدى وأنا أمسك برأسها، قال لها طبيب المستشفى

– قاومى إذا كنت تريدين طفلك.

شحب لونها تماماً. سمعت توقيعاً على الباب يردد دقات أغنية "أول مرة تحب يا قلبى" لعبد الحليم، تركت هدى بجوار الحوض، كنت آمل أن أرى أمها وبيدها كيس به فرخة من فراخ الجمعية، فتحت الباب فصاح منصور هاتفاً

– منصور جاء لك بالدواء.

خلفه وقف عبده ممسكاً بكيس كبير، يبتسم كطفل بصمت، فتحت ذراعى مبتهجاً.

دخلا من النور إلى ظلمة الشقة و الصالون اللميع، أضأت المصباح الكهربى، تقلص وجه عبده ألماً، وتنهد أسفا:

– يـــــاه..

لكنه سرعان ما رجع لهرجه ونادى علي هدى.

فتح عبده الكيس، فإنداح أمامنا التفاح والزيتون وكافة أنواع الجبن والخبز الأبيض، وليمونه وحيدة، صرخ عبده:

- هذه ليمونتى أنا

ثم مضغها باستمتاع.

فوجئت حين شدنى من يدى خارج الشقة ونزلنا الدرجات الأربع التى تفصلنا عن الحارة، فرأيت للمرة الأولي سيارته الزرقاء واقفة في الحارة الضيقة، جديدة ولامعة. قال مقلدا عبد السلام النابلسى

"دى بتاعتى

ضحكنا ولم أندهش. التف العيال الحفاة والعراة حول السيارة، لما حاولت إبعادهم زعق فىّ:

- أتركهم..

ثم أردف للعيال:

- أركبوا..

فتقافزوا فوق السيارة مثل قردة.

ضحكت ولم اندهش.

أخذنى منصور جانبا قائلا:

- سأحكى لك حكاية ستحدث.

ولما عرفت أن عبده ومنصور قررا معا أن يصطحبوننى وهدى إلي رحلة للعلمين فرحت. وتخيلت نفسى أجرى وألهو مع هدى تحت الشمس، لابد أن جسم هدى الواهن يحتاج إلى الشمس. كانت مازالت تتقيأ، فيما أمعائى تتقلص.

وصلنا هدى بالسيارة إلي بيت أبيها، معها فستان وجلباب بيت وشبشب وثلاث زجاجات من دواء للتقوية وفاتح الشهية والسعال.

سالنى عبده :

- ألن تحضر ملابسك؟

رددت بسرعة:

- بنطلونى وقميصى الثقيل، لا أحمل حقائباً أبداً.

ثم زعقت فرحاً

- فريد هنا.. لابد أن نأخذه معنا.

أصر عبده أن نرجع إلي شقتى أولاً لأنه يريد كتاب "تطورالنظرة الواحدية إلي التاريخ". ابتسمت بأسى وهمست:

"لسه فاكر"!

ضممتُ رأس "فريد" إلي صدرى. بالأمس سهر معى، جلسنا في ليل صامت، اضفى عليه فريد الكآبة عندما أخذ يحدثنى عن تلك الدولة البعيدة في الصحراء التى يعانى من تخلفها وشمسها ونظرات أهلها، ورغم ذلك التمعت عيناه فجأة وهو يقول:

- شقة واسعة، بها حجرة تخصنى، فيها مكتب أجلس إليه، وأمامى أباجورة، وساعة مكتب، وتليفون أبيض، وقلم حبر ماركة محترمة.

وقف في الصالة، فنهضت هدى وأستأذنت وتركتنا. التفت إلي وسألنى بجدية وسعادة:

- بالذمة ما رأيك في هذا الحلم؟

تساوت كل الأحلام، لا طعم ولا فرح ولا حزن ولا انتظار. سأم. صارت الأحلام تافهة.

اختلف عن كل الذين هاجروا. لم أحلم بفيلا أو سيارة أو بدلة كاملة، أو أن أصير قاهريا يعيش في أروقة دور النشر ويتناقش علي المقاهى في الثورة العالمية أو يشرب البيرة ويحضر كل الندوات و..

سألني فريد:

- ماذا تريد إذن..

تمتمت مثل طالب خجول:

- اكتب الحكايات..

عندما ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ودهس فريد أخر سيجارة في قلب المطفأة، حملتها وفتحت الشباك لأرمى بأعقاب السجائرفي الحارة، فإذا أبي اسمع همهمات وأصوات تئن بوجع ولذة. مسحت الحارة بعيني فلم أر سوى كلاب، وقطة نائمة فوق سور بلكونة، وغسيل منشور، وحجرة بعيدة وحيدة مضاءة. سمعت الأصوات مرة أخرى. نظرت أسفل الشباك فرأيت رأس الرجل الأصلع، وجسده يمتطي شيئاً، علا صوت المرأة، وهمس الرجل:

- وطي صوتك يا بنت الكلب.

كان الجسدان تحت الملاءة الكبيرة المرقعة، يقبان ويهبطان، هما تحتى بمتر ونصف، لم يسمعا الشباك وهويفتح ولا أحد يرانى. السواد ينسحب بسرعة من السماء، وبين الحين والآخر تنزاح الملاءة قليلاً من هنا وهناك ؛ فأرى رجلاً أو فخذاً أو مؤخرة..

حين قلت للبقال بخبث أن أحداً كان ينام تحت شباكى، ضحك طويلاً قائلا:

- من زمان..

وكان يصرف التموين لسيدة عجوز، وهو يواصل:

عمك السعدنى وزوجته خضرة.. ينامان في الفجر ويمضيا في الصباح..

رمى فريد عقب السيجارة من باب السيارة.

- أنا متعب ياجابر.

كل رسائله كانت تشى بـذلك، كنـت أظنـه الحنـين أو الشوق. لكنه القهر. ثم غنى ساخراً.

"أنا من ضيع في الأوهام عمره"

أنا هنا وعندى حنين وشوق، أنا هنـا وأشـعر بالغربـة والقهر والخوف، أشعر بأننى أمسيت شخصاً بلا أمل، أعـيش بشقة ضيقة مظلمة مع زوجة رهيفة نحيلة يهاجمها السعال في كل آن، أمشى علي أطراف أصابعى حتى أصل للشباك المطل علي الحارة، وافتح زجاج الشباك بحـرص كـى لا أزعـج السعدنى أو خضرة، ثم أتلصص وأتصنت. نعم كل ليلة أتسمع تلك الأصوات وذلك الفحيح الذي يفوح باللذة والمتعة والألـم، وما أن تظهر الشمس حتى أفتح الشباك فلا أجد مكانهما مـا يفصح عن وجود سابق سوى تأكيد البقال لي.

صاح منصور معلنا.

- نحن الآن في منتصف الطريق إلي العلمين.

رددت ساخراً:

- نحن الآن في الطريق إلي المقابر.

انحرفت السيارة، وتركت الأسفلت إلي مساحة من التراب بجوار حقل واسع وشجرة كثيفة الأوراق. فتح عبده الباب:

- أنزلـــــــــوا.

أخذت الهواء في صدرى، وتلقيته بوجهى وانتعشت، راح فريد يرقص مقلداً "زوربا اليونانى وتسلق منصـور الشـجرة وجلس علي فرعها القوى، وهتف:

ما يحدث الآن حكاية تحدث الآن.

فضحكنا. بينما كان عبده منهمكا في إخراج اشياء عجيبة من حقيبة السيارة:

مجموعة حقائب بلاستيكية ومعدنية، عرفنى عليها عندما ابديت دهشتى:

- هذه حقائب حافظة لدرجة البرودة كالثلاجة.. ياحمار.. وهذه لحوم وألبان وجبن و زجاجات مياه غازية وغير غازية، وشيكولاتة، وزيتون.. وليمونة، لن يقربها أحد إنها ليمونتى ياملاعين.

انه سبتمبر مرة أخرى، سبتمبر يمنحنى الفرح والحزن والموت والحياة. سبتمبر يباغتنى بنسماته ليبثنى الحياة. كان أبي – زمان – يجلس فوق الدكة الحجرية بالحديقة وأقعى أمامه علي الأرض واتأمله وهو يحكى عن سبتمبر واسمع صدى صوته يردد:

"فيه تنضج الجوافة ويزرع الفول الرومى وتنتهى زراعة الطماطم ويهج البحر، ويستحب استنشاق الهواء.

وتتغير أوراق الأشجار وتعزل فحول الأغنام، وفيه يزرع البرسيم، وفي آخره يعتدل الليل والنهار

وفيه تدخل البنات برج العذراء، سابحات في أحلامهن، راغبات في الحياة، ماذا سيهبنى برج العذراء؟

هزنى فريد من كتفى:

- إيه.. رحت فين !.

ابتسمت، ولم أفصح.

سبتمبر.. مات فيه عبد الناصر وشهد القرن العشرين أكبر جنازة لزعيم. وبكاه الشعراء.. سبتمبر اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية، كان خالي هناك يحارب. لا يعرف أحد من حارتنا، حتى ولا جدتى، مع من كان يحارب، لكنه يعود مرتديا ملابس عسكرية غريبة، ويدب برجله في حارات الوراقة فيختبئ كل خلف باب دكانه أو بيته أو زريبته. وعلي ارضنا كلهم جاءوا الحلفاء والمحور، وعلي أرضنا كان القتال و كان الملك محاصراً في عابدين، القنابل تدك ما زرعه

الفلاح في سبتمبر. لا انجلترا كانت تحنو علينا ولا الألمان جاءوا ليدافعوا عنا.. وهنا.. هنا بالضبط..

ارتفع صوت فريد فجأة وكأنه يبكى، وكأنه يصرخ، ارتفع بشعر لناظم حكمت:

"بلدتك وموطنك وبيتك ياحبى
أحملها في مخلاتى وعلي ظهرى
وأنا انتقل عبر بلاد المنفى
وسجون بلادى
أحملها في قلبى كالخنجر

فأخذ عبده يغنى ساخراً، وكأنه درويش في حضرة، يتمايل، يغنى كعجوز فقدت ابنها:

- "اسمع أن البؤس عتى في استانبول..
- اسمع أن البؤس عتى في استانبول..
- اسمع أن البؤس عتى في استابول.

توقف عبده بالسيارة فجأة، زحفت العجلات علي الأرض، شهق فريد، وضرب منصور كفاً بكف صارخا:

- انت مجنون يا عبده.

هبط عبده بسرعة، هبد باب السيارة خلفه، ضرب رجله اليمنى بالأرض مثل العسكر في حالة زهو:

- تمام يا جابر.. هنا العلمين.

هنا كانت موقعة العلمين وانهزمت ألمانيا وإيطاليا وترك لنا الألمان هذه الهدية التذكارية.

أشار عبده:

- المقابـــــــر.

دلفوا من الباب مثل أطفال في رحلة، فيما تقدمت خطوة ورجعت خطوة.

تذكرت "خطوة للأمام خطوتان للخلف".

سبتمبر منحنى عطره القديم. ماذا أشم؟ رائحة الجثث أم عطر الورود.

شدنى منصور قائلاً:

مسموح بالاقتراب.

السماء مفتوحة بلا نهاية. الأزرق الصيفى يمتد وفي الأفق يعانق الأصفر القاتم أبداً.

الكنيسة في عمق المشهد، تواجهنى هناك في نهاية المقابر. آلاف الشواهد والمقابر والأسماء والتواريخ والأحلام والشباب

- مجرد أسماء محفورة..

كانت الطائرات تهز الإسكندرية وأبي يجرى في حارات المحلة يزعق

طفوا النور

طفوا النور

انهمك منصور في تدوين أسماء الموتى في كراسة، ودون التواريخ، ورسم رسما بسيطا كالخريطة للمقابر وفي عمق الصورة رسم الصليب. جلست القرفصاء بجوار شاهد مات صاحبه في العشرين من عمره.

لم يترك ولدا ولا بنتاً، ولا يتذكره في العالم الآن سوانا. مات في الرابعة والعشرين. قبضت حفنة من رمل العلمين، كم من دماء اختطلت بهذا الرمل. شدنى لون الزهور الأحمر الغامق، انه الدم.

لما لحستنى الشمس نهضت، ولدهشتى لم أجد فريد ولا عبده ولا منصور!

- منصور

- منصووووووور

طارت بعض العصافير، والمقابر صامتة، والكنيسة صامتة.

- منصور

- جاااااااابر

جريت باتجاه الصوت لقيته واقفا فوق كوم حجارة ينثر في الهواء وريقات صغيرة دقيقة. هواء سبتمبر يأخذ الوريقات، يلعب بها. ابتسم منصور وهو يقول لي:

– عصافير الجنة..

مزق كل الأسماء والتواريخ ثم طيرها، هواء سبتمبر يأخذ الوريقات ويطير، يتقافز منصور محاولاً الإمساك بها ويصيح:

– عصافير الجنة.

ثم خلع نظارته. حملقت فى وجهه، عيناه مغرورقتان، سألته:

– ما لك يا منصور؟

مسح وجهه بيده، ووضع نظارته:

– تشابهت كل الأسماء والتواريخ، فرميت بها للريح.

لماذا لا يزدحم الناس هنا بدلا من الموت. لماذا لا يوجد باعة ولا مرشدين ولا نصابين ولا بائعى تاريخ ولا مزورى مومياوات ولا حراس يحرسون موتاهم !!. لماذا نحن والفضاء والرماد. أمى تعرف مقبرة جدتى وعمتى وخالاتى وأعمامى وأخوتى

– مقبرة جدتك.. اقرأ الرحمن.

سمعت نشيجاً، سرت باتجاهه على مهل وحذر. كان عبده مقعياً بجوار شاهد ينشج. أشار باصبعه، وخرج الصوت متحشرجاً.

– مات فى العشرين..

شددته من يده، طبطبت عليه وسحبته ليخرج معى. مشى معى محنياً كعجوز وهو يردد بلوعة وأسى..

– فى العشرين.. فى العشرين.

فريد كان جالساً هناك تحت مبنى مفتوح على كل الجهات، حيث الظل والهواء البارد، ممسكاً بسجل زيارات خاص بالمقابر وضعه على رجليه وهو يكتب. اقتربت ببطء وخلفه وقفت، كان يكتب قصيدة وظل يكتب ويكتب، وعندما احمرت عيناه وتقلص وجهه حزناً أعطانى السجل. أمسكت

القلم، ارتجفت، لكنى تماسكت وكتبت أول جملة قفزت إلى ذهنى " الموت من اجل لا شئ هو المأساة"

فى رحلة العودة كنا صامتين، الحزن والتعب النعاس يغتالنا الواحد بعد الآخر.

ودعنا عبده ومنصور على محطة القطار. فريد جلس بجوار شباك القطار ونام كالميت و ظللت طول الطريق أتابع تنفسه.

محطة المحلة تغوص فى ظلمتها. أمسكت بيد فريد وأخذته باتجاه مصباح نيون خافت مرتعش فوق رخامة كالتى نضعها فوق القبور.

ورحنا نقرأ معاً كأنما للمرة الأولى:

"فى هذا المكان
قتل العسكرى نمرة ٧٦٠
أحمد سليمان السيد
من النجيلة مركز كوم حماده
ضحية المروءة والقيام بالواجب
لأنه أراد خلاص روح من الموت
فدهسه القطار يوم ٢٦ مارس ١٩١٢"

خالي جثة ممدة

خالى جثة ممددة..

فوق المرتبة القطنية المتآكلة.

خالى مات فى العاشرة من مساء أمس فى مبنى جمرك بورسعيد. فى الفجر أجرنا أنا ومنصور سيارة لنذهب إلى خالى الميت، وكانت درجة الحرارة ٣٨م. أمى تردد كلمات مهشمة الحروف، وكان ما يشغلها هو هذا المجهول الذى جاء وخبط على بابنا فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، هامساً، متلعثماً: أخوك مات.. فى الجمرك. من هذا المجهول الذى لم يعرفه أحد فى الوراقة كلها؟ خالى طب ساكتاً فى الجمرك ! ولما رجعت لشقتى الضيقة وجدت منصور يشرب الشاى وهدى تحكى له عن المرتب والإيجار وكمية الشاى التى أشربها. لم يتردد لحظة وقرر على الفور أن يكون رفيقى فى سكة السفر إلى بورسعيد لأرجع بخالى.

خالى جثة ممددة فوق المرتبة.

سكتة قلبية !

كل القلوب تسكت يا خال دون إنذار، وأنت لم تبال فى حياتك بأى مرض، ولا تعرف حتى مكان قلبك، لعلك كنت تمرض ولا تعرف انه المرض، عشت الفقر كما ينبغى فى دارك المدفونة خلف بيوت الوراقة حتى جاء البلدوزر وحملها ببساطة ورماها فى جوف عمارة كبيرة تشيد كردم. بعت دارك يا خال للسوبر ماركت وحلمت أن تركب حصاناً وتمشى فى السوق الجديد، كنت تحلم بعالم مختلف، وتزعق فى وجهى: ماذا أخذنا من الاشتراكية ومن اليمن ومن سوريا؟ كنت ألاعبه الدمينو، قال مؤكداً معتبرنى غبياً: من لن يثرى أيام السادات لن يثرى أبداً.. هذه فرصة يا حمار !

أوقف منصور السيارة أكثر من مرة، لم يتبرم السائق الذى حصل على علبتين من سجائر منصور. مرة نزل واشترى ساندوتشات باردة على الطريق. الغيطان تنفث الضباب فيصعد، ويصعد يسد الطريق، يعتذر السائق عن بطئه ويشغل راديو السيارة، منصور أجر السيارة واخبره إننا فى طريقنا لإحضار ميت. انطلقت وردة تغنى: وحشتونى وحشتونى وحشتونى. ثم نزل ليبول، ثم نزل وحده ذات مرة وغاب ورجع ببعض عيدان القمح مدعياً إننا قد نحتاجها. لم يشغلنى سوى الإجراءات الروتينية التى ستواجهنا. قال الرجل المجهول أنه سقط ميتاً فى مبنى الجمرك. ويبدو أنه لا يعرف اكثر من هذا. نزلنا بجوار ساقية مهجورة مردومة بالتراب. أكلنا. وقال منصور هل أحكى لك حكاية لم تحدث غير مرة؟! جلس منصور ارضاً وأشعل سيجارة، ونام السائق فى مكانه. صمت منصور طويلاً، كنت لا أرغب فى تبادل الكلام، أفكر بخالى الذى سافر منذ سنوات ليتاجر ويبنى السوبر ماركت ويبيع الجينز ومزيل العرق والمسجلات.. و.. هل كان يحلم بالزواج، كنت صغيراً وهو كبير ولم يتزوج، كان يريد قال لى ان يبنى عمارة وتحتها سوبر ماركت ، دكان يبيع التليفزيونات

ودكان يبيع الملابس الحريمى. ثم، هكذا أضاف ودكان مكتب.. مكتب يا حمار.. أجلس وأمامى التليفزيون. يومها ضحكنا ضحكنا، ثم أردف: شفت هبل الناس هكذا يفكرون فى دولة العلم والإيمان.

أخذنى على غفلة وضحك علىّ، ولكنه رغم كل شئ سافر !

قال منصور:

رأيت فيما يرى المستيقظ وعيونه مفنجلة، رأيت وقد تدلى لسانى دهشة وهولاً، رأيت يا رفيقى جابر أهل المدينة يهرعون كالمذعورين وما هم يا رفيقى بمذعورين، يهرعون تاركين حقولهم ومصانعهم ودكاكينهم الصغيرة ويتسابقون باتجاه منافذ المدينة، منهم من ركب السيارة، ومن ركب الميكروباص أو الأتوبيس ومنهم من تسلق القطار كلهم راحوا إلى حقول البسكويت المستورد وملابس النسوان الشفافة وبحور الشامبو وغيطان الملابس القديمة التى كان يلبسها جارى كوبر فى أفلامه التعيسة.. ثم يالهول ما رأيت.. يمسحون عرقهم ليبدءوا السباق من جديد بحثاً عن منافذ اخرى وهناك من رأيته بعينى المفنجلة يركب الطائرة وحده ويرجع بالطائرة محملة بالوجبات السريعة والسمنة الصناعى والحليب الصناعى والجبن الصناعى والدجاج المغلف، وغمر بها جمهوريتنا الحبيبة.

ضحكت عالياً نهض السائق فزعاً، وداهمنى منصور متسائلاً بخبث:

ألست حزيناً على خالك ؟

خالى جثة ممددة، فى حجرته التى يسكنها بالإيجار بعد أن باع دار أمه للبلدوزر. خالى جثة فى حجرته بالطابق الثالث والطابق ذاته بحجرتين حجرة يسكنها خالى وحجرة يسكنها خفير المقابر. حجرة خالى مفروشة بحصير من

البلاستيك يغطى مساحة الحجرة تماماً لونه أزرق يتخلله وردة كبيرة لونها وردى باهت، والمرتبة القطنية فوق الحصير البلاستيكى وخالى ممدد جثة هامدة فوق المرتبة، والمرتبة ذاتها فى منتصف الحجرة ويحيط بها من كل جانب أجهزة كهربية فى الحجرة سبعة مسجلات حديثة جداً وثلاثة مسجلات مستعملة وقديمة ومروحتين من مراوح المكتب، وثلاثة صناديق من الكرتون مغلفة ومغلقة جيداً وملفوفة باللاصق البلاستيكى العريض.

زحفت على ركبتى وتفحصت الصناديق المربوطة، وعرفت أنها صناديق لأطقم الشاى والقهوة من خلال الرسوم المبهجة على الصناديق. فى الركن كيس هائل الحجم من البلاستيك السميك، أطللت برأسى فى الكيس لم أر سوى ملابس داخلية للنساء وشممت رائحة نفاذة. رجعت بحذر حتى لا أصطدم ببعض الزجاجات الملفوفة بالسلوفان، وبعض العلب التى تطل منها أمواس حلاقة، وعلبة كبيرة مليئة بعلب صغيرة ملونة لألبان الأطفال.

وخالى جثة ممددة.

ضحك منصور وقال: بينى وبينك كنت أتصور أن خالك سيموت ولا يعرف أحد مستقرة.. احمد ربك.

واشعل سيجارة قبل أن نواصل المسير بالسيارة. وأصر السائق أن يعيد على مسامعنا أغنية "وحشتونى من خلال الكاسيت. هل اهتدوا إلى شخصية خالى؟ هل كان يحمل بطاقته الشخصية ! ترى هل تجاوز خالى الستين من عمره أم لا ! تأرجحت دمية ميكى ماوس المعلقة على زجاج مقدمة السيارة. قبل بور سعيد ببعض الكيلومترات القليلة اعترض طريق السيارة ثلاثة نساء – يرتدين الجلاليب والطرح – رفعن أياديهن ووقفن فى وسط الطريق فى إلحاح وتحد، كدت

أقول للسائق: أغثهن. لكنه طار بسيارته منحرفاً إلى الحارة الأخرى ودار بسرعة هائلة قبل أن يعتدل ويواصل طريقه. تنهد شاكراً الله. صاح منصور فى سعادة هذه حكاية حدثت فعلاً. سألته عن سر ما حدث ولماذا لم يقف ويسألهن ماذا يردن ؟ ضحك السائق منى ساخراً، قائلاً: من ؟! ربما رجال، أو أشباح، مهربات أو مهربين، أو عصابة. كيف تأمن فى هذا الزمن لسائل او عابر سبيل ! ومضى مسرعاً وقلبى يرتج.

خالى جثة.. خلف رأسه ترقد حقيبة جلدية كبيرة الحجم بأقفال لامعة، خالى ممدداً، تحيط به الأدوات الكهربية والعطور ومزيلات العرق.

خالى جثة، جلست بجوارها فى رحلة العودة المجهدة، الإجراءات والروتين والأقوال أخذت منى كل شئ حتى الحزن سحبته ولم يبق سوى الزهق والإجهاد، فى العودة كانت الشمس قاسية، أخذنى النوم، ورأيت فى المنام ذلك المعلم الذى ضربنى فجأة على ظهرى فى حصة الحساب، كتب المسألة ثم مشى لآخر الفصل فى رجعته هبد بكفه المفرود على ظهرى تألمت وفزعت، نهضت فزعاً من نومى وكان منصور يدخن، متيقظاً، وجسد خالى يهتز.

حجرة خالى دكان مملوء بالأجهزة و.. دولاب.. دولاب جدتى، دولاب خشبى لونه أصفر فاتح. ترى ماذا فى الدولاب؟ ارتبكت !! إنهم قادمون حالاً، أو بعد قليل، امى وعمتى واى ناس من الحارة القديمة، ثم فتحت الضلفتين عن آخرهما: ملابس مكدسة وجلابيب، وبعض الصديريات وملابس داخلية، وقمصان وبنطلونات لا أعرف لمن ! كيس جديد كبير الحجم مربوط من أعلى برباط حذاء، ترددت لحظة لكنى شددته وفككته.. ياه.. تنهدت بارتياح ليس سوى بعض ملابس جدتى، ملابس قديمة، شممت رائحة جدتى. وربطت الكيس.

خالى جثة.. ولكن أين فلوس خالى ؟! عبثت بيدى كيفما أتفق فى أرجاء الدولاب. لا شيىء ! حين تسلمنا الجثة راجع منصور كل شيئ ولم نجد غير بطاقته الشخصية الجديدة إذ كانت بدل فاقد بتاريخ حديث وكان بها اربعون جنيها وبعض كسور الجنيه. أين الفلوس؟ لا يمكن أن يضعها فى البنك ! أين ؟! ارتطمت يدى بظرف كبير أصفر ممتلئ عن آخره، شددته بفضول، جلست فوق الحصير البلاستيك، فضضته. ورق.. ورق.. ورق ! أوراق جرائد ومجلات وعرائض ملفوفة. لا توجد فلوس، تنهدت فى ارتياح. ركزت على ركبتى، لفة الجرائد هى الأكبر، فتحتها برفق، صفحات رياضية من الجرائد كلها تحتفظ بانتصارات النادى الأهلى من صالح سليم حتى بيبو، ابتسمت فقد حدثنى كثيراً عن رفعت الفناجيلى. ثم مددت يدى لرزمة أخرى صفحات من مجلات ملونة وغير ملونة، وقصاصات كلها لنساء شبه عاريات أو فى أوضاع مثيرة، ثم وجدت كيساً من البلاستيك فيه محفوظة بعناية صورة فوتوغرافية أبيض وأسود لفتاة شعرها أسود تبتسم ابتسامة عذبة وتحنى رأسها وهى تبص فى عين الكاميرا. لا أعرفها، ولم يعرف أحد صاحبة الصورة في الوراقة كلها.

سمعت صوت أمى، فاعتدلت، ووقفت بجوار جثة خالي الممددة فوق المرتبة القطنية المتآكلة!

بين ظل وضوء

تسمرت فى مكانى مذهولا. طائرة السادات فى مطار اللد، رحلة إلى العدو؟!

زعقت هدى فى شفقة ارحم نفسك.

قدمت لى كوب الشاى الساخن وأنا أسأل كمجنون:

وجلال !! جلال ابن عمتى الذى استشهد فى سيناء.. والعبور ؟!

مرة أخرى ترددت نغمة الرخاء، كان المشهد رهيباً وهو فى الكنيست، بين الوجوه الكئيبة التى نكرهها. صارت الحياة يا هدى نكتة سخيفة، نزلت هدى إلى الشارع بالشبشب ومن تليفون البقال اتصلت بعبدة واتفقت معه أننا سنذهب للإسكندرية. وذهبنا.

سيدى جابر.. أجمل محطات الدنيا، ما أن تمسها قدمى حتى أشعر بأننى فى مكان مختلف يهبنى وده.

أحب رائحة الإسكندرية، ورحابتها. أمسكت هدى بيدى وابتسمت وقالت فرحة مثل طفلة: سنركب الترام أبو دورين ونأكل الفيشار ونتفرج على أسماك البحار الملونة وأجرى منك فى قلعة قيتباى ونفرح بلقاء الأصدقاء حاولت بكل جهدها أن تخرجنى من أزمتى لدرجة أنى أشفقت عليها وابتسمت.

لسعة برد وسكون يحط على قلب الإسكندرية. حتى الليل لم يكن مبهجاً، كانت اللحظة أقسى من صيف ٦٧ القاتل. عبرنا الطريق وركبنا الترام، هدى تصير طفلة حين تركب الترام وتغنى لعبد الحليم حافظ

أنا لك على طول خليك ليّه

تتابع الشوارع واللافتات، شددتها إليّ فى حنو فربتت على وقالت:

شد حيلك.

ياه.. هذه الجملة القديمة التى نقولها فى الكوارث والمآسى.

هتفت هدى: بيت عبده.

ارتفع بنا الأسانسير، وكان فى انتظارنا. هلل بفرح و طال عناقى له، ربت على ظهرى بقوة، ثم أمسكنى من كتفى وزعق محذراً:

إياك والهزيمة يا حمار.

جلسنا فى البلكونة المطلة على البحرقدم لنا عبده "اليوسفى والشاى، وجريدة المساء واستأذن.

هربنا إلى دفء الداخل، اغلقت هدى البلكونة وشدت الستارة، ضممتها إليّ ووعدتها بأننى ساكون فى حال أفضل، وأن الموضوع كله سياسة، وذكرتنى بأزمتى يومى ١٨ و ١٩ يناير حين أطلق السادات على انتفاضة الجوع: انتفاضة

الحرامية. وابتسمت بيني ونفسي عندما رأيتني أصعد إلى حجرتي فوق السطح لأقرأ "الانتفاضة" لأفهم وأستوعب. صرخت هدى فجأة لما داعبتها قطة صغيرة وجرت، جريت خلفها ضحكنا عالياً، واهتزت السلحفاة المركونة مثل حجر بجوار كرسي الأنتريه، ارتمت هدى على السرير تلهث صدرها يعلو ويهبط و السمك الملون فى حوضه الكبير يسبح فى نعومة ودفء..

قلت لها نفسي أنام يا هدى.. أنام بعمق.

لكنه عاد وأخذ يدق على الباب نغمات أغنية "وحياة قلبى وأفراحه"، وحين فتحت باب الشقة سقطت الأكياس التى يحملها فتطاير التفاح واليوسفى والموز وأنواع الجبن المختلفة، والعلب المغلفة، والمربات، ، والليمون الأخضر، و المخلل، والبيض واللانشون، و الخبز السكندرى الذى أحبه. ولما لملمت دهشتى. جلس على الكنبة سعيداً وقال:

– العشاء.

نامت هدى، والعصافير، والقطة وسكن السمك، وجلسنا – أنا وعبده – فى حجرة المكتبة الزاخرة بأمهات الكتب، وكانت الموسيقى الخفيفة تنطلق من المسجل الضخم بصوت خافت. يأس منى عبده.

وانشغل ببعض الاتصالات التليفونية، وكان أحياناً يسحب تليفونة بعيداً.

هل ديسمبر بكل هذا الجمال والروعة ؟! من أين أتت شمس هذا الصباح، رائحة اليود تهبنى حياة جديدة. جاء عبده من خلفى يغنى، ويفتح ذراعيه ليوم جديد، اتسعت ابتسامته:

– وراءنا اليوم زيارة هامة.

هبط بنا "الأسانسير

انحنى عبده على باب سيارة زرقاء أنيقة وفتح بابها وانحنى قائلاً:

- تفضلى يافندم.

جلسنا فى سيارة عبده. الإسكندرية مغسولة فى يوم مشمس والبحر أشد زرقة. قال عبده:

- من حقك أن تمتلك سيارة وهاتف و..

قاطعته مؤكداً:

- بالطبع بالطبع.

الإسكندرية قوس قزح، نلف مع الكورنيش، بزغت قلعة قايتباى كأنها خرجت من البحر. ونزلنا قبل سيدى المرسى أبو العباس بشارعين.

تمتم عبده فى أذنى:

- مفاجأة..

لم أكن متلهفاً لمعرفة المفاجأة، لأننى بعد كامب ديفيد تيقنت أن العالم قد أسرع الخطى أكثر مما ينبغى، وأن العالم قرر أن يتركنا خلفه.

سيدة فى الأربعين فتحت باب شقتها الفخم، وهب من الداخل عطر لم أعرفه من قبل. تهلل وجهها عندما رأت عبده. وقالت لنا فوراً وبثقة:

تفضلوا.. تفضل يا أستاذ عبده.

الشقة واسعة، ثمة لوحات عالمية، وقطة بيضاء صغيرة جفلت منا. الانتريه على يمينه البلكونة. البلكونة واسعة مليئة بنباتات الظل لكننى لم أر أبداً "بوتس" بهذا الجمال والتوحش والنضارة والخضرة. جلسنا، انبعث صوت موسيقى هادئة. جلست السيدة وضعت رجلاً فوق رجل، رحبت بعبده،

وتعرفت علينا وقالت إنها سعيدة بلقائنا، للسيدة سُمرة وجمال غامض، تبدو أكبر من عمرها. سألت بمرارة واضحة عن حال البلد والشعر والمثقفين. تبادلنا الآراء فى هدوء يشوبه بعض التحفظ والريبة وعدم الأمان كدأب ذلك الزمان.

وما أن بدأ حديث الذكريات عن ١٨ و ١٩ يناير حتى ابتسمت وأخذت تدخن سيجارة. قال لى عبده:

– هذه السيدة الجليلة هى التى أنقذتنى من يد الشرطة يوم ١٩ يناير.

ابتسمت بعذوبة، وهى تشيح بيديها...

– يا رجل.. لسه فاكر!!

وقف عبده مندهشاً، معبراً عن اهتمامه:

– كيف أنسى؟

خفت صوت الموسيقى وهو يحكى:

يومها.. أخرجت طلبة المدارس، استجابوا لخطابى وخرجنا فى جموع لم أتخيل أبدا أنها ممكنة!، هتفنا ضد الحكومة واقتحمنا قلب الإسكندرية لنكتشف أننا فى بحر من جماهير غاضبة، كنا ندافع عن رغيف الخبز.. ياه..

ثم صمت. ابتسمت السيدة وأضافت:

كان عبده محمولاً على الأعناق يهتف والجماهير تهتف، كنتُ بين الجموع، فرحة بالشباب والانتفاضة.

ضحكنا. واصلت السيدة باهتمام:

تصورت خطأ أن الانتفاضة ستغير النظام، وإننا سنخوض أياماً بل أسابيع غريبة وحرجة ومدهشة..

دهست عقب السيجارة فى المحارة المفتوحة مثل قلب. وأضافت :

وإذا بى ألحظ مجموعتين من المجندين والشرطة يلاحقون عبده.. وعبده منهمكاً فى أشياء أخرى.. وجدت نفسى أجرى، جررته من يده، فهمنى بسرعة، وذبنا فى الجموع.

قال عبده بدهشة حقيقية:

الغريب أن سيارة وقفت فجأة أمامنا... فتحت أبوابها.. و دخلنا بلا تردد.. ثم نزلنا بالقرب من هنا، ودخلنا هذا المكان.

قالت السيدة وهى تشعل سيجارة أخرى:

لم يكن أمامى سوى شقتى، كنا مُتابعين.. والذى لا يعرفه عبده أن السيارة كانت سيارة طبيب صديق لزوجى.

علت ابتسامة رضا على وجه "عبده" وأضاف:

واستقبلنا السيد الفاضل زوج السيدة الطيبة، وتناولت الغداء، والعشاء، ثم نزلت متخفياً فى أبواب العمارات.

فجأة أطل علينا من حجرة فى المواجهة تماما، خرج فى هدوء الموسيقى، متقدماً نحونا على عجلته بكل ود، يداه تحركا العجلات بتؤدة وطمأنينة، يرتدى بدلته الكاملة. نهضت السيدة باحترام وحب فى استقبال يليق به، اتسعت ابتسامته. وقدمته بنبرة اعتزاز:

- زوجى العقيد.

تحدثنا فى أشياء عديدة، عرفت منها أنه كان ضابطا أيام معارك "رأس العش" وكان فى الإسماعيلية لحظة استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، وشارك فى حرب أكتوبر، محققاً مع جنوده معجزة العبور، ورجع بدون ساقه اليمنى وبساق يسرى مشلولة. أدمعت هدى وتحدثت عن بطولة الجندى والضابط المصرى، وعندما قالت:

- لو كنا واصلنا الحرب.. ما حدثت...

أشار السيد بيده برقة أن تسكت، فسكتت ورجع إلى حجرته دون استئذان وسمعت لعربته جلبة وقعقعات.

قالت السيدة فى ألم لهدى:

- يا ابنتى دفعنا الثمن باهظاً وبدون تقسيط.

وغابت السيدة فى المطبخ. حط الصمت طويلاً، خرج عبده إلى البلكونة ووقف ينظر باتجاه البحر البعيد. أشارت لى هدى أن نمشى. نزلنا مع عبده باتجاه سيارته الزرقاء المركونة فى الشارع الجانبى، لحقت بنا السيدة وثمة ابتسامة مكسورة على فمها.

من "كاسيت" السيارة انطلق صوت عبد الحليم عذباً فى أغنيته القديمة وردد عبده بصوت مرتفع:

صافينى مرة.. وجافينى مرة..

تسلل إلينا بعض الدفء، والسيارة تتهادى موازية للبحر. كنت جالساً بجوار عبده الذى يهمس لى بين لحظة وأخرى بأنها سيدة جليلة ومحترمة وأن زوجها العقيد السابق فى غاية الاحترام وأننى لم أتعرف عليه جيداً فهو مثقف ومن عشاق "طه حسين". أشارت السيدة بثقة:

- قف هنا.

المطعم الممتد حتى مياه البحر له شكل السفينة، قالت السيدة إننا صغار السن واننا لن تهزنا هذه الأشياء البسيطة بعد ذلك..

وأضافت:

- مثلاً فى سنوات زواجى الأولى كنت أتمزق حزناً لأننى لم أنجب..

أشعلت سيجارة وهى تواصل:

– لكن.. الآن.. انظر.. استمتع بحياتى.. و..

سكتت فسكتنا وأردفت وقد تألقت عيناها:

– وأقوم بأجمل المهام.. رعاية زوجى.. تصوروا..

إنى أداعبه وأشاغله. كأننى أريد أن

يخطبنى وننزوج ونؤثث شقة.. و.. ربما..

ربما ننجب أطفالاً.!!

كمية الكباب والكفتة كبيرة جداً، لم نأت عليها، تحدثت السيدة طويلاً عن "عبد المنعم رياض" وقالت أن زوجها يريد أن يكتب كتاباً عن الشهيد، وقالت أنها تحب سعاد حسنى وزكى رستم.

كانت عذبة وقاسية فى آن، أخرجت من حقيبتها ذات اللون المشمشى "مفتاح الحياة" الفرعونى فى حجم الأصبع الصغير وأهدته لهدى، أخذته هدى وضمته فى كفها الصغير.

أوقف عبده سيارته أمام محطة سيدى جابر. ودعناه والسيدة. دفعت ثمن تذكرتين درجة ثالثة، إسكندرية المحلة.

فى القطار بينما الهواء يندفع بارداً من خلال الزجاج المكسور قالت هدى لا تنسى أن نشترى الفول والجبنه لتناول العشاء حين نرجع.

نفس دافئ.. نفس بارد

البطن الحامل تنتفخ وتنتفخ، وامتد الانتفاخ الذى يضاهى الورم لجميع الأجزاء: القدمين واليدين خاصة الكفين والأصابع، خلعت دبلة الزواج والخاتم الصغير والغوايش، تركت الأحذية ولبست فى رجليها الشبشب. صار كل شئ ضيقا حتى أنفاسها ووصل الانتفاخ إلى الوجه والجفنين، قال الطبيب أن ضغطها عال وأن نسبة الزلال عالية ولكن الجنين بخير، وطمئننا. لا تبكى يا هدى. ضريبة ندفعها حتى نراهم ونفرح بهم. تبتسم ابتسامة واهنة، وتربت على طفلتنا الصغيرة، والصغيرة تسأل عن البطن المنتفخة فتقول هدى بفرح حقيقى إنه أخوك.

كنت راجعاً مهموماً، متكدراً بلا سبب، أعض شفتى السفلى لغيظى المجهول. ما أن اقتربت من البيت حتى هالنى مشهد الناس المزدحمين أمام البيت شباكنا المفتوح عن آخره، وحين اقتربت وسع لى الجميع فى أسى، فانخلع قلبى، ولم أفكر بأى شئ سوى اقتحام المكان ورؤية هدى. تلقفنى على درجات السلم وأخذنى فى حضنه، تمتمت فى ذهول: فريد! ضغط على بحنان وهمس فى أذنى: لا تخف. هرولت فهرول ورائى وكانت هدى لا جالسة ولا ممدة ولا نائمة ولا ميته فى مكانها كانت عينين زائغتين وشفاه زرقاء، دخل جارنا الذى لا أعرف اسمه وهتف زاعقاً: قم.. لقد أحضرت الطبيب. كان الطبيب خلفه، هادئاً، كشف، غطاها، قال بثقة: تنقل حالاً للمستشفى أو ستموت.

سيارة جارنا تجرى بسرعة وهدى على صدرى ثقيلة باردة، أربت عليها، أهمس فى أذنها لعلها تسمعنى: لا تخافى لا تخافى. وفريد أمامى بجوار السائق أمسك جبهته بيده. قال له الطبيب ربما تموت فى الطريق.. الله موجود.

فى المستشفى كان الأهل والجيران والأصدقاء وبشر لا أعرفهم متكدسون فى طرقة المستشفى العام، زعق الأطباء وزعق الممرض وزعقت العاملة، كلهم صرخوا فى وجوهنا أخرجوا. وأدخلوا هدى غرفة العناية المركزة، كنت آخر من لمس جبهتها وهى تنظر بعينيها فى السماء المغلقة لا أعرف هل كانت ترانى أم لا. شدنى فريد وهم أغلقوا باب غرفة العناية المركزة، داهمنى إحساس بالألم، انسابت دموعى فى صمت فيما تقلص أحسه بقلبى كيف سأتركها وحدها تواجه الموت.

داعب فريد ابنتى، بينما كنت وحدى أتلمس الأشياء التى كانت ترتبها، الشماعة وفوقها ملابسها، أحذيتها المبعثرة، الجنيهات القليلة التى تحفظها بعيداً عن أيدينا فى جيب الجاكت

لوقت العوز، سمعت صوت فريد يغنى لابنتى، وهى تضحك عالياً وثمة انفعال فى ضحكتها، فى المطبخ صحون لم تغسلها هدى بعد وبرطمانات الزيتون والليمون التى لم تذقها هدى بعد. فريد يقلد صوت الأطفال فى الغناء وابنتى تضحك عالياً، لم تسعفها السنوات الأربع لتدرك حزننا. نامت بجوارنا على الأرض، دخن فريد علبة سجائر كبيرة وشرب فنجانين من القهوة وأخذ يحكى لى عن الموت والحياة، وعن شاعر انتحر حرقاً، وعن حيتان تنتحر بشكل جماعى، وعن شعوب تموت في الحروب، وعن شاعر ظل يكتب حباً للحياة حتى سن التسعين، وعن سيدة ألقت بنفسها من الطابق الرابع، وسيدة عاشت من أجل أبنائها مائة عام، وعن شعوب أصرت على الحياة و.. نام.. وأنا لم أنم.

فريد ظل بجوارى عدة أيام، الأيام الأولى متشابهة. فى الصباح ننهض بسرعة لا أتناول إفطار، مجرد كوب شاى يتسلط على الوسواس الخناس فأرى طرقة المستشفى مزدحمة بالسواد، أين هدى، أسقط مكانى. أتشبث بيد طفلتي، أجلس أمام حجرة العناية المركزة ساعة ساعتين ثلاث حتى يأذن لى بالدخول.. أدخل، جثة ضخمة نائمة، عطر فذ فى الحجرة، محاليل، أنبوبة أكسجين، هدى.. أهمس منادياً بصوت خفيض ولكن كأننى أناديها بعزم قوتى.. هدى.. أحاول التقاط نفسها الدافئ على خدى.. هدى لا تجيب.. فأقول لها أنا أحبك يا هدى وأريدك.. ارجعى لى.. أنا وحيد بدونك. أقبل جبهتها الباردة.

قال الطبيب: تسمم حمل. والطبيبة ذات العطر تسللت وشدتنى برفق لأخرج، فوجدتنى كمن لطمته موجة عالية قاسية فى الخارج. أخذنى فريد فى حضنه. قال لنا الطبيب فى حجرته المضيئة: الآن سيطرنا على ضغط الدم، ومات الجنين.. سنقوم بعملية قيصرية لإنقاذ الأم.. الله موجود.

جرجرت رجلىّ حتى فريد، هززته فنهض وسألنى: ماذا؟ فقلت له.

لابد من دفن الجنين.

لم تتقدم سوى أمى لاستلام الجنين، وشفتها السفلى ترتعش ولا تملك السيطرة عليها.

شالت الجنين ولفته فى البشكير وأخذته فى حضنها ونزلت. هل احتضنت الجنين بقوة أم بحنو؟ هل نزلت درجات سلالم المستشفى بسرعة وتعثرت أم نزلت الدرجات وهى ساهمة؟ لا أعرف !

قالت أمى بعد ذلك فى اليوم السابع: نعم.. أخذته برفق، وكأنه فى بطنى سرتُ به.. كنت فرحة لنجاة هدى وحزينة على الوليد الذى مات.. كان ولداً جميل الملامح.. تأكدت من ملامحه حين جلست على طوار أستريح.. بالراحة فككت البشكير، بصصت فى وجهه الوليد.. كان جميلاً يا جابر.. مسدت شعره الناعم الطويل، ثم لففته جيداً، لكن رعشة أصابت جسدى كأننى خفت أو ارتعبت.. لكنى واصلت المشوار بسرعة.. ثم تمهلت وشددته بقوة لحضنى، ضممته لعله يستدفئ فيصحو.. استغفر الله يا بنى.. تقطع قلبى وأنا أضمه.. كنت أحلم بضمه "وليد يرفس ويبكى ويضحك وكنت قد حلفت أن ألقمه ثديى، أنت تعرف أنى ألقم ثديى لأى طفل أحضنه، يلعب الأطفال فى ثديى ويضحكون للعجوز التى تلاطفهم، وسرعان ما أخاف.. سرعان ما أفرح.. حتى وصلت به الدار فتركته لأختك.

ثم جلست فى الركن وانتحبت ولطمت وجهها مرة واحدة وزمت شفتيها ونامت.

هكذا قالوا.

أطبقت على يد هدى الباردة الشاحبة، كانت تسأل بعينيها: أين هو؟ أدركت أنه ميت، تهز رأسها تسألني، تخفض جفنيها، ابتسمت في وجهها وقلت كاذباً لقد كان الجنين مشوهاً وما حدث رحمة بنا. لم ترد. شفتاها زرقاوان، أشرت للمرضة، علقت محاليل الجلوكوز، قالت حالاً ستصبح مثل الفل.تذكرت الوليد شددت على يد هدى وهرولت، نزلت درجات المستشفى مسرعاً، وشققت شارع العباسي المزدحم بالناس والعربات كأنني طائر ووقفت أمام باب البيت الكبير المغلق، الكلاب تنبح وثمة ظلمة في الداخل كئيبة. بنت صغيرة قالت بعد تلعثم وهي تشير بإصبعها للفضاء

راحوا للترب.

بعد الجسر لحقت بهم وهالني منظر عشرات النساء والفتيات يمشين خلف الوليد الملفوف في كفن أبيض مثل منديل تحمله أختي الكبيرة، ثم رأيت أمي وخالاتي وعماتي وأخواتي البنات وأم الرزق منحنية وجهها للأرض وتجرجر نفسها خلفهم.. كنت مغلوباً على أمري والناس جالسون على المقهى يلعبون الدمينو ويقهقهون، والصبيان في الشارع يتصايحون، والظلمة تحط ثقيلة والنسوة مازلن أمام البيوت جالسات باسترخاء على العتبات يتبادلن الأحاديث، والدرجات والسيارات تجري، والطيور تبحث عن أعشاشها والأغاني تنطلق من البيوت والمقاهي، وعلى مهل تضئ بعض المصابيح ويصير المشهد كتلة ضخمة سوداء. كنت في الخلف صلاح. شدني من يدي، همس: ارجع أنت. ولم أرجع. فتركني وأخذ يضرب كفاً بكف، ثم لف رأسه بوشاحه الأبيض.

فجأة توقف المشهد أمام بيت عمتي، هرولت عمتي. لداخل بيتها والصمت طاغ بعد لحظات خرجت وخلفها صبيان لا أعرفهم يحملون الكشافات الكهربية، وواحد يحمل "كلوب"

كان زوج عمتى يضيئة زمان فى الدكان، أغشانا الضوء فرأيته ملفوفاً أبيض ناصعاً.. أصغر مما ينبغى، أكبر مما ينبغى. تحرك المشهد مرة أخرى تزينه الأضواء، ورجال لا أعرفهم مشوا بجوارى، وشاب تأبط ذراعى.

على باب المقبرة توقفنا دخل الدفان ورجال لا أعرفهم وأختى الكبيرة وأمى. غابوا عشرات السنين فصرت عجوزاً اتكأ على عصا لأنهض وكنت فى حاجة له ليسندنى، وفقدت بصرى وفى حاجة ليقودنى وينير طريقى، كنت جائعاً ولم يمد يده ليطعمنى. هتف الغريب

لا إله إلا الله.

جلست ببطء بالغ بجوار حائط المقبرة، وأدمعت. ورأيته أمامى "أبو حيان التوحيدى" وهو يسأل مدهوشاً: "لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به وآثره وكدح فيه مع ما يرى من صروفه وحوادثه ونكباته وغدره وزواله بأهله؟"

ثم شخص وجهها أمامى نحيلاً مصفراً يتألم. ثم رنت إلىّ وابتسمت ماذا عساك يا هدى تفعلين الآن.

وهاجمنى عطر الشيح بقسوته.

عطر سيدات أربع وأمهن العجوز

قدمت لى كوباً من الشاى الأخضر، الطقس بارد أحكمت الكوفية حول رقبتى، اهتزت يدها فرنت غوايشها الذهب، شكرتها متلعثماً:

- شكراً يا.. أمانى.

التلعثم سببه: إننى لا أعرفها جيداً وهى الراقصة الشهيرة فى أفراح كل القرى، و أننا وحدنا فى البيت المكون من طابقين ورائحة الطلاء الجديدة مازالت خانقة. جلست بعد أن جذبت كرسياً لتواجهنى. فكرت أن أمضى تاركاً البيت والهواجس بعد أول رشفة من الشاى الأخضر، أترك الباب وأمضى، لن يقبض على لمجرد أنى كاتب قصة. لقد بالغت هدى فيما تابعته من رقابة، ثم أن الرجل المجهول الذى سأل عنى لا تعرفه هدى، لكنها أكدت أنه مخبر. أمى أيضاً جاءت مهرولة تضرب على صدرها:

- يا جابر.. كلهم حول البيت.. رأيتهم أعرفهم وأشم رائحتهم.. يا جابر.. من أجل خاطر أمك..

لقد تم القبض على مفكرين وشخصيات عامة حقاً.ولكن أنا مجرد كاتب قصة.

عندما كنت على وشك الخروج من باب بيتنا الكبير، لمحت احدهم وخرجت، نادى على أبى وهو يرفع رأسه لأعلى وأشار إلى أن أجلس بجواره فنهضت بسرعة تلبية لإشارته، جلست. همس بهدوء وثقة:

- سافر.. دمرو.. أى مكان.. ثلاثة
او أربعة أيام. ما المشكلة ! حتى
نعرف النتيجة.

أمانى أخرجت علبة سجائر من جيب جلبابها الذى يغطيه الشال الصوف قاتم الألوان، والشال ينحدر من على كتفيها فيما شعرها منسدل كيفما اتفق. قالت:

- أتعرف.. عمرى مثل عمرك باليوم.. هكذا.
تقول أمى اعتماد، يومها خرجت وجيدة
الداية من داركم إلى دارنا وقالت أن
جميلة ولدت طفلاً، وتقول أمى
اعتماد إنها لم تزعل من وصول ابنتها الرابعة للدنيا.

أشرق وجهها بابتسامة وأردفت

- تخيلتنى - اعتماد - من أول لحظة راقصة
الفرقة الدلوعة بعد أن تفرغت أختى بثينة للغناء.

سألتنى باهتمام:

- هل سمعت أختى بثينة؟

قلت متذكراً فى سعادة:

- نعم.. سمعتها فى فرح أختى علية
وهى تغنى "ليه خلتنى أحبك"

ابتسمت أمانى وباغتتنى :

- هل رأيتنى وأنا أرقص ؟

قلت بهدوء بالغ

- لا

ما هذه الفكرة العبقرية التى واتت أمى عندما هتفت

- بيت الليلة عند اعتماد

باعتراض قال عمر

- الغوازى !

رد أبى بحماس

- أنهم طيبون.. لم نسمع عنهم شيئاً سيئاً

جرت أمى واختفت وقالت أنها تكلمت مع اعتماد والمرأة رحبت جداً

التمعت الفكرة.. اختفى بعض الليالي فى بيت اعتماد صاحبة أشهر فرقة أفراح، والبيت بعد حارة واحدة من بيتنا ويطل على مطلع الوراقة، كان مكانه زمان يطل مباشرة على قطار الدلتا ومساحته الخالية كانت مرتعاً للثعابين فى البوص الكثيف، كان الجميع يهرول حين يقترب من المكان ورأى الجميع الثعابين التى يدهسها قطار الدلتا وحكى حسين القماش" أنه شاف بعينيه الثعبان الملفوف تحت أرجل السائق ويضيف الآخرون أن السائق لدغ ومات فى مكانه بينما قطار الدلتا مضى فى طريقه بلا توقف، حتى خرج سيد ذات صيف حار إلى مساحة البوص وخلفه كانت جميلة حاملة على رأسها صفيحة الجاز ويجرى خلفهما الابن الذى حكى الحكاية كثيراً، وتوجه سيد لمكان البوص ودلق الجاز من الصفيحة فى الأركان ثم فى وسط المكان، جميلة ترتجف خوفاً على سيد الذى ربما يمشى على بطن ثعبان أو تقترب منه حيه، ولكن سيد رغم حذره كان ثابتاً والفضول يطل من عينيه القويتين،

يزيح البوص بيديه كأنه يبحث عن شئ ما.. ثم يبدأ يرجع للخلف ببطء إلى أن خرج من نهاية المساحة الشائكة، أشار لجميلة لتبتعد، وأخرج علبة الكبريت وأشعل عوداً من الثقاب فاشتعل البوص، وألتف أهل الوراقة حول النار العالية وقد تسلح كل منهم بالأخشاب الطويلة والحصر، ويقال أنهم شموا رائحة الثعابين المشوية ويقال أنهم انهالوا ضرباً على ثعابين صغيرة ويقال أن الحريق ظل ثلاثة أيام بعدها سكن الثعبان بيت "خضرة" حيث ظل فى بير السلم حتى وجدوه ذات صباح ميتاً أمام بيت خضرة، حينذاك كان بيت اعتماد قد نهض على أعمدته من كتل الطوب الأحمر كانت اعتماد التى لا يعرفها أحد بفستان واسع طويل ذيله يجرجر فى الأرض وفى يدها بنت صغيرة وخلفهما كان عجوز يستند علي عصاه يخرج الفلوس من حافظته الجلدية ويعطى للبناء حتى صار المكان بيتاً كبيراً ذا طابقين.

قلت لها وقد سرى الدفء فى المكان

– إننى أعرفكم من زمان.. كنت طفلة

لا تلعبين معنا.. و.. كنتم.. بيتاً..

يخشاه الجميع !.. إلا أبى.

بصت بدهشة يشوبها ابتسامة، حكيت لها

– سيد هو أول من دخل بيتكم وأرسل جميلة بالصينية الكبيرة المدورة وفوقها الكوارع ولحمة الرأس

وحكى لى أبى أن صاحب عمره أبو سعده استنكر بشدة وزعق فى وجهه

أنت تصاحب العفاريت والعوالم !!

الصالة مرتبة للغاية، صالون قديم ومفرش على تربيزة صغيرة يتوسطها مطفأة زجاجية لامعة نظيفة، مرآة قديمة

على الحائط، وسجادة كبيرة تمتد إلى ما تحت الكراسى، والتليفزيون نصر يتوسط شيفونيرة وبجواره منبه كبير وراديو ترانزستور علي هيئة تليفون، بينما يتسرب عطر حامل معه أنوثة سيدات أربع وأمهن العجوز اعتماد.

سألتها عن الرجال الذين يسكنون معهم البيت من زمان، قالت:

أزواجنا.. كل إمرأة لها زوج، وأنا الوحيدة التى حملت فيهن.. أنا حامل فى الشهر الثالث ولن أرقص لمدة سنة كاملة.

وهالنى أنها أدمعت لأنها ستحرم من الرقص لمدة عام كامل! مسحت أنفها فى منديل مطرز على طرفه باللون الأخضر زهرة. قالت:

- يمكنك أن تتمدد على الكنبة الكبيرة.

لم أرد على اقتراحها، لكنى نهضت بعد ألفة المكان أتشمم هذا العطر الغريب، وأصغى لهذا الصمت الثقيل. زمان.. فى زمان بعيد كان قطار الدلتا يصنع جلبة فى البيت، وكنا نسمع بعد وقت الأصيل الموسيقى والغناء تنبعث من البيت الذى له باب أحمر ضخم كبير بضلفتين ومغلقاً دائماً، وكان بيت اعتماد هو أول بيت فى الوراقة على بابه "زر ما إن تضغط عليه بإصبعك حتى يضرب الجرس فى الداخل وتطل اعتماد على الفور من البلكونة لتعرف من القادم!

فى البداية كان التوجس والرهبة والهواجس السيئة متبادلة بين أهل الوراقة وبيت اعتماد، عندما أسمع دقات الدف وصوت "العود" ألصق أذنى بالباب وانتصت.. لا أسمع سوى موسيقى الأغانى التى أعرفها لشادية وليلى مراد، بابهم مغلق لا يفتح إلا نادراً لكنه فى كل مساء يفتح على مصراعيه بعد أن يأتى حنطور "عباس" العجوز مثل حصانه، يفرقع "عباس"

بالكرباج ثلاث مرات فتخرج اعتماد إلى البلكونة فى كامل زينتها ويلتمع على صدرها النصف عريان الكردان الذهب، بعد دقائق يخرجن من الباب، فيما أتخفى وراء عمود الكهرباء بجوار حمام البلدية، بكل زينتهن وعطرهن الفواح: ثلاث سيدات كبيرات، وكنت أعرف منهن بثينة، وفتاة صغيرة فى مثل سنى دائماً تتقافز خلفهن سعيدة! ثم يركبن الحنطور. يضرب عباس بالكرباج بجانب الحصان الذى يتلكأ ثم يمضى مخترقاً الشارع الجانبى بجوار الحمام، أتوارى، ألبد خلف العمود لأرى هؤلاء الذين عششوا فى رأى كالأساطير: ثلاثة رجال، أحدهم يحمل آلة العود، والثانى يحتضن طبلة تحت إبطه، والثالث يحمل شنطة طويلة بيد قصيرة.

طبعاً كنا ننسج حولهم الحكايات، وبعض نسوة الوراقة يحكين عنهن الأباطيل حكيت معها طويلاً، واستعيد فى ذات الوقت الخرافات التى كنت شخصياً أحملها لملامحها فى شكل الوجه والصدر العريان. تأملت ملامح الوجه الطويل النحيل وشعرها الخشن المفرود بدبابيس الشعر، وقد فقدت مرحها الذى فى خيالى عندما حكت عن أمها اعتماد جاءت إلى هنا مع رجل عجوز يكبرها بعشرين عاماً هو الزوج والأب لربعة بنات كانت هى أمانى أصغرهن عندما بدأو فى بناء البيت، والأب العجوز مات هناك فى "شربين" وأقامت الأم هنا بين إناس متوحشين ورجل طيب اسمه "سيد" تذهب إليه اعتماد سراً لتطلب سلفة من الجنيهات القليلة أو لحمة الرأس، واعتماد تطلب فى السر ما تراه جميلة عادياً، وتأتى متخفية فى الليالى الخالية من إقامة الأفراح لتجلس بجوار جميلة ووابور الجاز المشتعل ليولد الدفء، وتظل اعتماد تحكى وتحكى حتى تنعس جميلة ثم تقسم جميلة على اعتماد ألا تمشى فهى تسمعها وتأنس بها.

قلت لها أنى أحب الغناء والفن، وحكيت لها عن آلة "القانون أستاذ الآلات الموسيقية. قالت أن زوجها يعزف العود وحلم كثيراً بامتلاك آلة قانون. ثم حدثتها عن آلة "العود" وتاريخها القديم، وعندما بدأت أحكى لها عن رجل اسمه "زرياب" أمهر عازف على آلة العود وكيف أضاف الوتر الخامس.... وأنه... قاطعتنى قائلة:

- ان خيرى أحسن عازف عود فى الغربية.

زوجها، تتصدر صورته الصالة مع أنه الأصغر بين أزواج أخواتها. يرتدى جاكت أسود وببيون وقميصاً أبيض وشعره لامع ومفرود على الجانب الأيمن راكناً ذقنه على قبضة يده ومبتسماً. ولقد حضرت ليلة فى مقهى كان يعزف فيه خيرى، والذى قادنى للمقهى فريد الذى كنت أتوجس من أصحابه الذين لا أعرفهم، اقترض منى فريد ثمن علبة السجائر مرددا أنى سأسمع لموسيقى هام سيغفله التاريخ. وتحلق حول العازف عدد كبير من رواد المقهى وبدأ بالعزف طويلاً، ثم عزف وغنى لأم كلثوم "عودت عينى على رؤياك"، انتبهت لموهبته وذكائه فى الأداء. وكان يتردد من المتحلقي:

- الله يا خيرى
- يا أستاذ...
- عبد الوهاب والله..

نظر لهم جميعاً معترضاً وعض على شفته غاضباً فسكت الجميع حتى عن رشف الشاى ونبر نبرات خفيفة كاستهلال وواصل العزف، فيما يهتز فريد طرباً وينظر لى معجباً بفكرته، وواصل خيرى الانتقال من أغنية إلى أغنية من أم كلثوم وعبد الوهاب ومحمد قنديل. كنا لما نصفق له لا يعيرنا أى اهتمام بل يجهز "عوده" ويضبطه للأغنية التالية.

بعد الفجر خرجنا من المقهى، لم يأخذ خيرى مقابلاً سوى الاستحسان وربت فريد على كتفه وقال له باختصار:

- أنت فنان جميل

فابتسم خيرى ابتسامة مكسورة.

خرجنا من المقهى الدافئ للشارع البارد. اجتاحنى البرد وانكمشت، أخذنى فريد تحت ذراعه سألنى:

- أأنت بردان؟

قلت من بين اصطكاك أسنانى:

- نعم.

هتف هامساً:

- يا حبيبى.

خلع فريد معطفه وأجبرنى على ارتدائه. وضمنى إليه، شعرت بدفء فريد وشممت عطره المختلط برائحه سجائره.

عندما قلت لها سمعت خيرى من قبل لم أجدها! بعد برهة خرجت من حجرة ممسكة بألبوم صور. شدت الكرسى بجوارى وفردت الألبوم على التربيزة، فرت أمامى الصفحات والسعادة تغمرها والزهو أيضاً وتعلق على الصور، وهى فى الصور بملابس الرقص وحدها أو مع بقية الفرقة أو آخرين.

كان دخان سيجارتها كثيفاً. لا تكف عن التدخين ولا تكف عن العبث بعلبة الكبريت. قالت:

هذه الصورة فى فرح ابنة "على بك" أنظر إنها تمسك يدى... وهذه الصورة فى فرح "وجدى" ابن تاجر القطن "غالى بك" وهذه وأنا واقفة بين العريس العجوز وعروسه الصغيرة... نعم هو

نفس العجوز الذى قتل عروسه بعد أسبوعين من زواجهما.. ملأت حكاياتهما الجرائد.. ألم تقرأ.

ثم قلبت الصفحة وبسرعة وضعت يدها مفرودة على صورة كبيرة، وهى تكاد تطير فرحاً قالت بصوت فرح:

- مفاجأة.

ابتسمت لتواصل. هتفت:

- أنظر.. أنظر هاأنذا مع "شكوكو

كانت وكمال وخيرى مع شكوكو، وشكوكو يقف بين أمانى وخيرى فيما كمال يطل برأسه من يمين الكادر. كان شكوكو يضحك ضحكة عذبة.

أضافت:

هذه الصورة عندما حضر شكوكو فى حفل فى الشركة.. سأكبرها وأعلقها.

كانت فى كل الصور مبتسمة وسعيدة.

عندما أذن للفجر قدمت لى فنجان قهوة لم أطلبه، وأمسكت بفنجانها تحتسى على الشرب بسرعة لتقرأ لى الفنجان، لحظتها دار المفتاح فى الباب وانفتح ثم صارت جلبة من اعتماد والسيدات والرجال الثلاثة. دخلوا بعطرهم، وبوجوه مجهدة، اعتماد أكثرهن حياة، رحبت بى واطمأنت على حالى وربتت على كتفى بحنو وهى تهمس:

- يا بن الغالى.

بثينة مدت يدها وسلمت بود، وكمال تبادل معهم بعض الكلمات، وفجأة اختفى الجميع وأمانى. لم يسألنى أحد أى سؤال، بعضهم نزل للطابق الأول، وبعضهم اختفى فى الحجرات فى سكون تام. والآلات الموسيقية رصوها على الكنبة الكبيرة بعناية

فائقة. تحيرت فى اختيار قرارى، ماذا سأفعل الآن أو بعد قليل؟! ضوء النهار يتسلل عبر شيش البلكونة.

ألبوم الصور لا يزال على التربيزة، سحبته ببطء، فتحته كيفما اتفق... صورة لأمانى ممسكة بالميكرفون وخلفها كمال يدق على الطبلة بحماس وينظر إليها بإعجاب وفرح، قلبت الصفحات.. صورتهم مع شكوكو.. فرح بتحقق لحظة تاريخية غير عادية، لاحظت يد أمانى تلمس خلسة كتف شكوكو.

خرج خيرى بعد أن خلع البدلة وارتدى الجلباب الفضفاض، حمل العود ثم تربع على الكنبة الكبيرة، لاحظت أنه يرتدى بلوفر صوف تحت الجلباب و "كلسون" لم ينظر لى. احتضن العود ونبر بريشته نبرةً ثم ألتفت لى وتساءل:

– هل سأزعجك؟

قبل أن أرد بدأ العزف.

خيل لى أنى أعرف المقطوعة الموسيقية ولكن لم أمسك بها فعلاً، حين دعكت جبهتى بإصبع واحد محاولاً التذكر قال:

– موسيقى أول همسة... لفريد الأطرش...

هل تحب فريد؟

قبل أن أرد واصل العزف.

هالنى البراعة التى يعزف بها. حين انتهى صفقت بصوت خفيض حتى لا أزعج من ينامون النهار استعداداً لشغل الليل. لأول مرة أرى وجه خيرى متهللاً هكذا. اخرج سيجارة من جيب الجلباب الجانبى، أشعل السيجارة التى لدخانها رائحة الحشيش. ضم العود إلى صدره. ثم قال:

– اسمع اسمع

وعزف موسيقى أغنية "صافينى مرة وجافينى مرة" لعبد الحليم حافظ، ثم بدأ يغنى بصوت لا يشبه صوت عبد الحليم

حافظ. وحدثته عن سهرة المقهى. فرد أنه يرى الآلاف ولا يعرف أحداً. وأخذ يكرر فى الأغنية حتى أحسست بالشمس من خلال الشيش. سألنى:

- أتشرب القهوة ؟!

شكرته فنهض، ومشى، واختفى.

فتحت شيش البلكونة فطالعنى نهار مشرق رغم الأمس البارد، وأطللت على الميدان الواسع الذى يقبع فيه حمام البلدية المهجور، كان أبو سعدة يظلع فى مشيته، وحنطور عباس مركوناً بجوار باب الحمام الكبير، والتلاميذ يهرولون باتجاه الوراقة حيث المزلقان يأخذهم إلى شارع الوراقة والمدارس ونظرت للبعيد وخيل لى أنى أرى مدرستى البعيدة مدرسة الأقباط الإعدادية. "أم بشير" تزيح الغطاء الكبير من فوق أقفاص البرتقال واليوسفى.. و.. أمى

بالضبط أمى تجلس بجوار الأقفاص وتتطلع عيناها إلى البلكونة حيث أقف فى أول لحظة كانت تلف نفسها فى "الحِرام" الأسود والطرحة، وحين ألتقت عيوننا نهضت بفزع وفرح، أمسكت بسور البلكونة فجرت باتجاه بيت اعتماد بلهفة. طرت مسرعاً، أخذتنى فى حضنها، شممت رائحة برد ليلة كاملة قضتها بجوار أقفاص البرتقال، لعنت الأوهام. أخبرتها أنى سأرجع معها، سألتنى بلهفة: هل أكلت يا جابر ؟!

عطر صديق

استيقظت فوجدته بجوارى، مشرق الوجه، يبتسم بعذوبة، له وجه أمه الطفولى، قال:

- قرأت نصف رواية وأنت نائم.. وقدمت لى هدى ثلاثة أكواب من الشاى.. ولاعبت ابنتك ثلاثة أدوار كوتشينه !

تهللت لوجوده، فرحت به، من زمن بعيد لم يجلس بجوارى، ولم يمكث عندى هذه الساعات اشتقت لأيام بعيدة حين كنا نذاكر فوق السطح وكان يصاحب أرنب بنى اللون ولدهشتنا كان الأرنب يتمدد بجواره فوق الحصيرة فى الحجرة التى كانت فوق السطح وكان ينهمك فى المذاكرة حتى يقرض الأرنب اصبع رجله فينتفض محمد صارخاً ضاحكاً مدمعاً صانعاً صخباً وفرحاً.

محمد !!

صباح الخير يا محمد.

تبادلنا حباً قديماً بيننا، يغطيه بين آن وآن غبار البعد والسفر وسوء الفهم والطموحات ورغبة التفرد، لكن الغبار ينفض مع أول نسمة لقاء صغيرة

أين أنت يا محمد؟

تمنيت لو فريد معنا يقاسمنا لحظة الود هذه غير أن محمداً استحضر فريد بأبيات شعر يحبها له، ثم أخذ يتذكر مغامراته الصبيانية مع البنات وظل يضحك حتى أدمعت عيناه لماذا تبكى يا محمد فى الحزن والفرح ؟

قدم لهدى علبة ماكياج رقيقة وفخمة، ومذهلة بالنسبة لنا، وقال مداعباً:

الهدية ليست منى.. إنها من روان.. فى ذكرى زواجكما.. روان لا تنسى. ونحن لا ننسى يا محمد..

كنت وهدى وأنت وروان فى أسبوع زواجنا الأولى. واستضفتنا شقتك، وقضينا اجمل أيام العمر.. ودخلنا أجمل المحلات وغنينا أجمل الأغانى وتحولت شقة العرس إلى صالون ثقافى كل ليلة بلقاء زملاء الكتابة فى القاهرة.

ما هذا يا محمد ؟!

قدم لى حقيبة بلاستيكية لما فضضتها دهشت إذ كانت تحتوى على أهم الأعمال الروائية الحديثة بطبعات فخمة، ومجموعة كبيرة من كتب الأساطير وحواديت الأطفال.

عندما شكرته ضحك قائلاً:

- يا جابر.. كل هذه الأشياء لا تساوى أكواب شاى إفراج..

ثم أخذ يحدثنى عن موت السادات، وقال:

- الذين أفسح لهم الطريق قتلوه

ها أنا يا محمد ابتهج بالحياة.

عطرك يا محمد سبقك.

أدركت هدى أنى انتقلت لمرحلة مختلفة وبدا هذا واضحا من اهتمامى بملابسى ذات الألوان الزاهية.

- هل ثمة أمل يا محمد فى العالم ؟!

مط شفته.. ثم قال:

لعل اغتيال السادات جعل البعض يتشفى فيه والبعض الآخر ينكمش فى جحره، لكن الإرهاب الذى كان مطلقاً فى الجامعات والصحف اختفى فى جحوره فى اختبار لفترة يجهلها !

ثم أردف..

عليك الآن أن تكتب بهمة.. أنت موهوب.. فقط. اترك قوقعتك.

أخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية معدة سلفاً بدقة، مد يده بها مبتسماً، أخذتها وفتحتها كانت عناوين لجرائد ومجلات مصرية وعربية وأسماء رؤساء تحرير.

قال بنبرة أمر:

سوف نتعامل مع هذه المجلات، وستنشر لك، وستأخذ المقابل الحقيقى لجهدك.

ثم أردف

- لابد أن تسكن شقة جديدة.. شقة واسعة.. مضيئة.. ويصير عندك حجرة مكتب ومكتب وأباجورة ومروحة كهربية.. وحجرة استقبال، أقلام، ومحابر..

ومراجع، وموسوعات.. لابد.. لابد يا جابر.. و.. وعليك أيضاً أن تقتنى اللوحات العالمية.. واسطوانات تحمل كل سيمفونيات العالم.. لابد.. لابد يا جابر

ثم جلس، وطلب أن نزور بيت أبى ليرى أبى وأمى وإفراج.

وصارت شقته فى القاهرة هى بيتى، وروان الصديقة والأخت. ولم تعد القاهرة بالنسبة لى الغول الذى يحط على روحى، ولم يظل الخل الوفى من المستحيلات الأربعة.

كنت أنزل فى الصباح الباكر وأرجع إلى شقة محمد فى آخر الليل، أجده قابعاً يكتب بانهماك، يرمقنى، يبتسم ابتسامة سريعة ترحل أسرع.. ولا نتبادل الكلام.... يا محمد.

من يخاف الجبل ؟

دعانى ليوم مختلف. وافقت دون السؤال عن المكان، ولما نزلنا من سيارته رمادية اللون لم أر سوى جبال. جبال شاهقة غامقة اللون أو صفراء، لم أتصور أننى مازلت فى القاهرة. ابتسم وسألنى:

– هل تخاف الجبال ؟

توجست فجأة، نظرت فى عينيه الحمراوين. يالخيالى الريفى محمد لن يقتلنى.

وصعدنا. كانت خطواتنا الأولى يشدها الفضول، ثم صارت مبتهجة حين أمسك بيدى اليمنى وأخذ يهزها كالأطفال، ولما بدأنا الصعود كانت الطرق ضيقة ملتوية ومكسوة بمسحوق الجبل والقطع الحجرية الصغيرة المتناثرة أضفت زهواً للوحة تفاصيلها مجهولة.

تضيق الطرق حتى لا تتسع سوى لأحدنا بان يمر، يخفق القلب منى، ثم ينفتح الطريق على مسطح مستو واسع، نظرت لبعيد فوجدت أشباح العمارات العالية والبرج والأهرامات بالكاد فى اللوحة المغبشة بدخان كثيف. ثم دخلنا مساحة أوسع، شعرت بالارتفاع البالغ عن الأرض، لكن الدور القليلة المتناثرة والعنزات التى تركض خلف بعضها، والكلاب التى لا تنبح، والنسوة الجالسات أمام الدور، والرجال العابرين، جعل ألفة للمكان، وارتحت. قلت لمحمد:

– ماذا لو جلسنا معهم وتبادلنا الحكايات ؟

همس لى محذراً:

– أنظر لوجوههم.. إنها جامدة.. إنهم جزء من الجبل.

أضاف محمد بدهشة حزينة:

– رغم سِحر المكان !

شد يدى لنمض بثقة العارف بالدروب.

دخلنا ممرا ضيقاً جداً جداره عن شمالنا جبل منحوت، وخرجنا إلى فضاء، هذه المرة لم يكن أمامنا سوى جبل شاهق يحمل الشمس على قمته. وقفت. التفت لى محمد مبتسماً وقال بثقة:

– هيا سنصعد الجبل.

ظننته يضاحكنى، راوغته بمرح طفل وأوحى له بأنه يمزح معى.

– لا.. إننى لا أمزح.. سنصعد الجبل.

تراجعت فى إصرار وأخبرته أننى أخاف الأماكن العالية. هز رأسه رافضاً أى اعتذارات مؤكداً:

– سنصعد الجبل.

رجف قلبى.. مذا تريد يا محمد..؟ إننى أحبك، بيننا عيش وملح وشاى وأحلام.

أكد على كل حرف:

- سنصعد الجبل.

وقفت صامتاً. مندهشاً. قال بزهق وهو يهز كتفى:

- إرم أوهامك ومخاوفك.

ثم أردف:

- هيا..

وتركنى ومشى فمشيت خلفه. نعم مشيت وكيف أتبع هواجسى ولا أتبع صاحبى ؟!

مشينا طويلاً بدون حوار، ثم وقف فجأة وانتظرت حتى صرت بجواره، لف ذراعه حول رقبتى وقال:

- نحن اللحظة فوق الجبل فعلاً.

لاحظت لون التربة الأحمر والسماء تحوطنا ورائحة مختلفة للهواء. اخذ نفساً عميقاً وقال:

- سنبدأ من هنا.. سيلف بنا الجبل ونصبح على أعلى نقطة فى القاهرة !

مشى فمشيت خلفه، كان يتكلم وهو يمضى بهمة ونشاط، تكلم كثيراً جداً لكنى لم ألتقط سوى بعض الكلمات:

- القاهرة.. ضئيلة.. غير مرعبة..

ثم واجهنى قائلاً:

- ستشفق على كل شئ.

استسلمت لفكرة ألا فرار، وقررت أن أعيش اللحظة، وخلت أن الهواء يداعبنى.

الشمس بدأت تميل وتضع ظلالاً على بعض من أوجه الجبل، وحرارة الشمس محتملة وتهبنى دفئاً طارداً للمخاوف.

فجأة ضاق الطريق وصار عرضه لا يتجاوز المترين والجبل عن شمالنا عالياً أصماً.

وعن يميننا صار منحدراً كأنه قائم الزاوية.

وقف محمد. فكر لحظة واحدة، ثم قال مثل قائد:

– تعالى أمامى.. نعم.. امش أنت أمامى !

نفذت ذلك بارتباك. ومضينا بعض الأمتار، فصار الذى عن يميننا قطع مستقيم متساو كأنك قطعت الجبل بسكين خرافى فى ليلة انصهرت فيها الدنيا وحلمت بالبساط السحرى وبالقوى الخارقة وبحلم الإنسان بالطيران، واسترخت مفاصلى فى المشى، وازدادت ضربات قلبى وأخذت أفكر بالطيور والنار والموت بينما محمد يصفر لحناً، ويتوقف عن الصفير ويصرخ مقلداً الأصوات الأوبرالية، وكنت أمسك فى لحظات بصوته مرتعشاً. سألته أن يكون أمامى لأننى أجهل الطريق، فضحك عالياً وهو يقول:

– هو طريق واحد.. لن ننحرف يميناً أو شمالاً.. أنظر.

حين نظرت ساخت روحى. الطريق ضاق، والجبل ارتفع، والهوة عن يميننا بلا قرار!

رجف قلبى قلت بصوت به فزع:

– لنسرع كى نخرج من هذا المضيق.

قال محمد حالماً:

سنخرج إلى اتساع وألوان.. هناك سترى أبدع شجرة فى الكون بزهورها البنفسجية دائمة الازدهار.. و.. هل هذا الموت من أجل الزهور البنفسجية!

فى حديقة بيتنا كانت للزهور كل الألوان.. يا محمد.. هل نسيت الحمراء والبيضاء والبنفسجية، والزرقاء التى همت بها وجلست القرفصاء أمامها يوما كاملا مبهورا ومتأملا، وفى المساء قطفتها أنا ووضعتها فى علبة سلوفان وخبطت على باب حجرتك وعندما فتحت الباب قدمتها لك. طرت فرحا، زعقت بكل حب وقلت لى: أنت نبيل يا جابر، ووضعتها أمامك فوق التربيزة وأزحت الجمجمة اللامعة، وسهرت مبهورا وفى الجزء الآخير من الليل دمعت عيناك دمعتين ثم أخذت فى البكاء حتى الصباح.

تمتمت لنفسى لماذا نموت من أجل لون الزهور ؟

لم يعد أمامنا خيار !! سنسير بحذر للأمام فوق الشريط الرفيع الذى أصبح سكتنا الوحيدة إلى أن يتسع المكان ونخرج إلى الجبل أو ينحرف الطريق ويتسع وننزل معه فنلعب مع الأوز والعنزات. ولكن وصلنى صوت محمد كالهمس وكالخوف:

- انظر

نظرت إلى يمينى، لأن شمالى جبل عال لا نهاية له، فرأيت هوة بلا قرار.. وأمامى على بعد أمتار كان الجبل مشطوفا !! شهقت. حذرنى محمد:

- إياك والدوار !

لمسنى بيده لمسة خفيفة فارتعدت. همس:

- لا تخف.

سأل كأنه لا يسألنى وهمس كأن لنفسه:

- ماذا سنفعل ؟

انقطع الطريق تماما من أمامنا. أمامى الآن هوة، لا منحدر، ولا مرتفع، أمامى صار الجبل مشطوفا، نشف ريقى.

ذهل محمد، سمعت دقات قلبه، وقلبى ينتفض فينتفض صدرى. قلت:

- ليس أمامنا سوى أن نرجع.. ونرجع بظهورنا. حتى نصل للبداية !

قال محمد الذى لا أراه:

- لا يمكن الرجوع بظهورنا.. سيقع أحدنا فى هوة سحيقة.. ليس غير حل واحد.. نستدير لنستطيع أن نمشى بوجوهنا للأمام.

وبعد دقيقة هى الدهر اتفقنا أن نستدير على هذه الحافة الرفيعة، لابد أن نستدير استدارة كاملة واتفقنا أن ننظر لجدار الجبل. لا ننظر لأسفل. قال محمد مؤكدا:

- لا خيار.. الموت أو الحياة.

نزلت القرفصاء بحرص، خلعت حذائى.. أزحته فطار إلى المجهول دون صوت أو ارتطام، حاولت أن تصبح أصابعى أظفاراً تخمش فى الجبل لأمشى خطوة وأستدير. وغبت عن العالم لحظة هى الفاصلة وأنا أستدير، كنت على أربع وأنا أستدير، لا أتنفس وأنا أستدير لا أخاف وأنا استدير ولا أنتظر حتى استدير.. تصبب عرقى بغزارة ولشدة دهشتى رأيت محمداً وقد استدار، سنمشى للأمام، مشيت على أربع، لا تنظر يمينك أو شمالك أو جواك، ليس سوى للأمام ننظر. سمعت محمد يقول برجاء وطفولة وقوة:

- هه.. جابر.. تماسك..

- هه.. خطوة.. خطوة..

ثم صرخ زاعقاً بفرح وهستيريا: ها

وصرخت بفرح وهستيريا: ها

إذ كنا قد وصلنا للاتساع والمساحات مد لى يده، أمسكتها بقوة، واندفعنا جريا لمساحة أكبر للأمان، وبتوجس نظرنا إلى ما كنا فيه، صرخنا مرة أخرى.

هـــــــا..

ثم احتضنني محمد طويلاً وأخذ يربت على ظهرى، طبطبت على ظهره، ومسحت بكفى مؤخرة شعره الناعم، وعندما واجه كل منا الآخر كانت الدموع تملأ عيوننا.

مشهد أخير

كان هادئاً تماماً، ممدداً فى استرخاء، خيل لى أن ابتسامة تعبر وجهه، مددت يدى وأمسكت يده الممتدة إلى جواره. أمسك بيدى ووضعها على صدره. القلب يدق. نبح الكلب فى الخارج فزر عينيه ثم زم شفتيه.

حين سكت النباح تحركت يده وانسلت إلى فتحة جلبابه وأخرجها بعد هنيهة بساعته ذات السلسلة والغطاء. سألنى كم الساعة الآن؟

قلت له: الخامسة.. الخامسة تماماً.

ابتسم وهمس: بدرى.. لسة بدرى.

فى مدخل البيت، مكان الحديقة، جلس رجال لا أعرفهم، بعضهم جلس القرفصاء وبعضهم افترش الأرض، بينما تكوم عدد من الرجال تحت شباك حجرة أبى، منهم من يرتدى الجلابيب الغالية، أو الجلابيب الرخيصة، ومنهم من يرتدى البنطلونات، وثلاثة رجال يرتدون البدل الكاملة والكرافيت، وتحت الشباك لاحظت عجوزاً أسمر ذا لحية بيضاء، وحبات المسبحة تجرى بين أصابعه.

فى صالة البيت كن يجلسن متشحات مبكراً بالسواد، وجميلة متكورة فى الركن وقد أمسكت قلبها الضعيف بيدها اليسرى، فيما الأخريات كن يهمسن بحكايات مختلفة. قالت عمتى إنه رحل من زمان.

الأيام السبعة الأخيرة فى حياة أبى كانت تتأرجح بين الفرح والحزن، بين صحو وتألق، وصمت واغفائة.

ذات يوم مشمس من أكتوبر وجدوا أبى نازلاً درجات السلم وقد هجر حجرتى فوق السطح، وجدوه حاملاً على كتفيه اللحاف وتحت إبطه عدد من الكتب القديمة. جرت جميلة إليه: مالك يا سيد ؟ لماذا تركت الحجرة ؟

لم يكن أحد قد انتبه أن الحجرة قبرت داخلها صوراً لم تعد ملونة، وأحلاماً لم تعد ممكنة. وحتى رائحة البخور التى أشعلها أبى هجرتها، والعصافير المعششة فى السقف طارت بلا رجوع، هو الذى انتبه !

هو الذى رأى أن سقف الحجرة سينهار. همس لجميلة

- إحذرى السقف.

لكن السقف لم يقع إلا في اليوم الأربعين لوفاة سيد، ذات ظهيرة سمع الجميع فرقعة شديدة، ولما تمالكوا أنفسهم جروا إلى السطح ليروا السقف منهاراً، مكوماً فى وسط الحجرة، وبين الحطام كتب محظورة، وبقايا أوراق، كأنها محروقة، ملفوفة فى كيس بلاستيك. حكت لى أمى عن الكتب والورق، وأرجعتنى لشتاء بعيد، حيث أخفينا كل ما نملكه خوفاً من ديمقراطية ذات أنياب. تفاديت الرجال ونظراتهم المتأملة، وقبل أن أتجاوز عتبة الباب الكبير سمعت الصرخة. نهض أبو سعده بصعوبة بالغة، احتضنني، ولامست ذقنه الخشنة وجهى، وهمس :

- البقاء لله.

تنهدّت فى أسى، وربتّ على ظهر أبو سعده رفيق سيد، تقدمت ببطء وأنا أجرجر قدمى. بلعت ريقى بصعوبة، تطلعت فى عيونهم، لا أعرفهم.

– منذ الليلة الفائتة وهو غائب عن الدنيا.

قالت عليّه، ومسحت دمعتها ببطن كفها

– لا حس، ولا نَفَس

ضربت أمى على صدرها وزعقت باحتجاج

– لا.. بعد أذان الفجر رأيته بعينى التى سيأكلها الدود، جلس نصف جلسة على السرير، ثم رفع يديه لأعلى و قال الله أكبر وصلى الفجر، ثم مال برأسه قليلا، شهقت فسمعني وقال، كأنه الرجل العفى، لماذا يا جميلة ؟ كنت أسلّم..

احتضنته وطبطبت على ظهره..ونام عليّه ــ خلسة ــ هزت رأسها نفياً، وسحبتنى إلى جنب، وهمست لى

– لا.. قبل الفجر وأمى نائمة بره فى الصالة، وقد حطّ عمر فوقها بطانية، تسللتُ لحجرة أبيك رأيته جالساً على الأرض أمام الدولاب وقد سحب درج الدولاب الأخيرعلى الأرض، كان يجذب الأوراق من ملف قديم وكلما جذب ورقة ينظر إليها جيداً ويقرأ، نعم هو الكفيف استرد بصره، صدقنى يا جابر.. كان يقرأ وأمسك ورقة وسمعته بأذنى يقول هذه هى الورقة، ثم دسها فى جيبه، وأعاد الدرج ونهض مثل شاب، فتح ضلفة الدولاب وشد ثوبا من القماش الأبيض تشممه وأغلق ضلفة الدولاب وصعد إلى السرير، ونام

مال على عمر وقال بهمس :

- عليّه لم تنم طول الليل، كانت جالسة أمام حجرة أبيك المغلقة تبكى بلا توقف، بعد الفجر زعقت فيها أن تكف وأدرت أكرة الباب بحذر، ورأيته راكعاً على ركبتيه يطل من الشباك المفتوح على الجنينة، ثم شب وبص يميناً ويساراً، ونظر لأعلى شجرة النبق وزعق

- يا أخى إنزل.

لما وجدنى عمر مندهشاً، ابتسم وهو يذكرنى

- لعله كان يكلم الجنى.

- هل نسيت ؟!

اعتدل أبي وطلب سيجارة، أشار إلى تحت الوسادة، مددت يدى لأجذب علبة السجائر، لمست أصابعى مفتاحاً صغيراً وختماً وورقة مطوية، سحبت بأصابعى علبة السجائر وتدحرج قلم جاف أحمر، التقطه بسرعة وسأل وهو يقطب جبينه

- من نزعة من تذكرة داود ؟

لم أرد. أشعلت له السيجارة، كاد أن يضعها فى فمه، لكنه أعاد يده وأشار برأسه لأعلى قائلاً

- أطرد هذا القط !

لم ألحظ وجود قط، لكن ما أن تلفت ورفعت رأسى ورأيته فوق الدولاب متحفزاً وسواده يلتمع، وقفت، وزعقت

- بسْ

فقفز قفزة واحدة خاطفة فى لمح البصر عابراً بين حديد الشباك إلى الحديقة.

قال أبى بارتياح :

– شممت الآن رائحة التمرحنة.

صرخت أمى فى الخارج وعرفت أن القط الأسود كاد يخمش أمى من سمانة رجلها اليسرى، لولا أن عمر ركل القط بقوة، اختفى القط قبل أن يراه أحد. غير أن أمى قالت أنها رأت نفس القط على الطرف الآخر من المقبرة، قبل دفن أبى بدقيقة واحدة، وكان يرمق الجميع.

استرخى أبى تماماً، وحكى

– خلعوا شجرة التمرحنة، لكنه يأتى ويجلس فوق شجرة النبق..

ثم سألنى وكأنه يتذكر بصعوبة

– سعد زغلول.. رجع ؟

أجبته بسرعة

– رجع.

سأل

– وسيد درويش ؟!

– لا.

تنهد، وقال

– النهر أيضاً لا يرجع، ولا ما نراه فى المنام يرجع، ولا حتى أمى.. قل لها لا تنتظر، هى فى دار وأنا فى دار هربتُ من دارنا فى الحارة السد.. هربت من رائحة الصنان وشواهد القبور.. ومن البومة.. بومة لم أقل عنها لجميلة.. لا تقل لها.. بومة فوق السطح، سنوات وأنا أبص فى عينيها المدورتين وتبص فى عينى.. وأنا يا جابر كنت مستغرباً من لونها الأبيض الشاهق، كنت

أراها أحياناً طفلة واحيانا وردة وأحيانا نذير موت.. خفت.. وهربت إلى النهر فخرج الجنى من الماء راكباً بغلة !

بنيت البيت وزرعت له شجرة التمر حنة لتصير بيته، لكنه اختار شجرة النبق ليسكنها ليطل علىّ ويشكو لى همه جابر.. مد يدك بين السرير والجدار

مددت يدى.

ماذا وجدت ؟

أمسكت بعيدان ناشفة، ثلاثة من عيدان القمح الناشفة صفراء كالذهب، وضعتها أمام وجهه، نظر لعيدان القمح كأنما يرى! ثم أشار إلى عود منها وقال

– خذه.. اسمع الكلام

ونادى بأعلى صوته

– يا عمر.

لم يسمعه أحد، هدأ.. ثم قال

– جميلة تحب النهر، لكنها تخاف الجنى..

انتبهت إلى عقب السيجارة بين أصبعيه وقد احترق. أخذته، رميته على البلاط ودهسته بحذائي.

اقتحمت أمى الحجرة ونطت إلى السرير فانزحت قليلاً، احتضنت رأسه بقوة فى صدرها وهى تردد لاهجة

– يا خويا يا خويا يا خويا

جرت البنات إلى المكانس وكنسوا البيت. وأشار أخى الكبير للرجال، الذين اكتظ بهم المكان، أن يخرجوا فخرجوا.

أتى الخلق من الوراقة، امتلأ الشارع الممتد أمام بيتنا، امتلأ بالرجال والنساء والأطفال، يتطلعون إلى البيت والنبقة العالية والحجرة التى فوق السطح.

ملأت البنت القلل، وجرت واحدة وشدت شوال الأرز، وأخرى قطعت البطاطس، وأعطاهم أخى اللحم، واشتعلت المواقد من جاز وبوتاجاز وحطب، ودخلت نسوة لا أعرفهن يحملن على رؤوسهن صوانى الطبيخ.

ما أن ظهر النعش خارجاً من باب البيت حتى علا الصراخ والأصوات والهمهمات. فى هذه اللحظة وقف حنطور عباس خلف الحشد، وانهمرت دموع عباس العجوز. طلت من الحنطور ثلاث سيدات فى أوج زينتهن، كن ذاهبات لإحياء عرس، ثم طل من بينهن وجه اعتماد العجوز، أدمعت، وبيد مرتعشة مسحت وجهها، وساح الأسود على الأحمر، ثم اخترق المكان شاب راكباً حصانه البنى اللامع وأخذ مكانه متقدماً المشهد.

المحتويات

١	الرائحة القديمة	٥
٢	الشجيرات تلفظ خضرتها	١١
٣.	سفر وردة سمراء	٢١
٤.	وهج النار	٢٩
٥.	حتى لايفزع المغني	٣٧
٦	البكاء طائر محبوس	٤٧
٧.	كان يحب الجراء	٥٣
٨.	ريح سبتمبر	٥٥
٩.	خالي جثة ممدة	٦٧
١٠.	بين ظل وضوء	٧٣
١١.	نفس دافئ..نفس بارد	٨١
١٢.	عطر سيدات أربع وأمهن العجوز	٨٧
١٣.	عطر صديق	٩٩
١٤.	من يخاف الجبل	١٠٣
١٥.	مشهد أخير	١١١

* جار النبي الحلو

- مواليد ١٩٤٧/١/٢٩ – المحلة الكبري

صدر للكاتب:

- القبيح والوردة – قصص قصيرة – دار شهدي ١٩٨٤
- طعم القرنفل – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ – طبعة ثانية مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
- الحدوتة في الشمس – قصص قصيرة – دار الغد ١٩٨٩
- طائر فضي – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ – طبعة ثانية ٢٠٠١
- حلم علي نهر – رواية – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ – طبعة ثانية – مكتبة الأسرة ١٩٩٩
- قمع الهوى – قصص – دار ومطابع المستقبل ١٩٩٤
- حكايات جار النبي الحلو – حكايات – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧ – طبعة ثانية مكتبة الأسرة ٢٠٠٤
- حجرة فوق سطح – رواية – المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩
- قمر الشتاء – رواية – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣

*** كتب للأطفال**

- محاكمة في حديقة الحيوان – رواية – أبو ظبي ١٩٩٢
- قط سيامي جميل – قصص – كتاب قطر الندى
- ليلة سعيدة يا جدتي – قصص – كتاب قطر الندى ٢٠٠٣
- الكتكوت ليس كلبا – قصة – دار الشروق ٢٠٠٣

* مسلسلات تليفزيونية للطفل

- أصيل في أرض النخيل.. ثلاثون حلقة
- أصيل فى السيرك الكبير.. ثلاثون حلقة
- حكايات منسية.. ١٥ حلقة
- كنز الواحة ١٥ حلقة عرائس
- فرس يدق الجرس..١٥حلقة عرائس وبشرى
- حدوتة فى حدوتة..٣٠حلقة بشرى، عرائس، مسرح أسود
- الجبرتى..١٥حلقة عرائس
- حواديت جميلة ٣٠حلقة – كارتون –
- طيور صغيرة.. فيلم أطفال.. ٣٥ دقيقة – بشرى –

* جوائز وشهادات تقدير

- حصلت المسلسلات على جوائز ذهبية وفضية وبرونزية فى مهرجانات القاهرة لسينما الأطفال ومهرجانات الاذاعة والتليفزيون
- شهادة تقدير لأبداعه المتميز عن سيناريو حكايات منسية – مهرجان الاذاعة والتليفزيون١٩٩٦
- الميدالية الذهبية – مهرجان القاهرة للأذاعة والتليفزيون١٩٩٦
- شهادة تقدير من السيدة سوزان مبارك للأداء المتميز فى دعم ثقافة الطفل ١٩٩٧
- تكريم من جمعية المسرحيين – دولة الامارات العربية المتحدة – فى مهرجان الشارقة المسرحى١٩٩٧

- *شهادة تقدير من الهيئة العامة لقصور الثقافة – الأسكندرية ١٩٩٩-*
- *تكريم من صوت القاهرة – اتحاد الاذاعة والتليفزيون – لحصول مسلسل الجبرتى على الجائزة الذهبية ١٩٩٩*
- *جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة – مؤتمر أدباء مصر فى الأقاليم – مرسى مطروح ٢٠٠٠*
- *الجائزة الأولى محترفين عن قصة الكتكوت ليس كلبا ٢٠٠٣*
- *فيلم طيور صغيرة" حصل على الجوائز الآتية*

– الجائزة الذهبية للأفلام القصيرة – فى مهرجان القاهرة الدولى لسينما الطفل – ٢٠٠٨

– الجائزة البرونزية للأفلام الروائية القصيرةفى مهرجان القاهرة الدولى لسينما الطفل ٢٠٠٨

– الجائزة الذهبية من وزارة الثقافة للأفلام العربية

.. كنت أصعد تلك الدرجات صاخباً، فرحاً، غاضباً، جذلا، محبطاً، ثائراً، شفيفاً، عطوفاً، متلهفاً، هزيلاً، قوياً، مهزوماً، طموحاً. وصعدوا إليّ مثل أرواح تلهو بالحياة فتستسلم لهم.